إدريس هاني

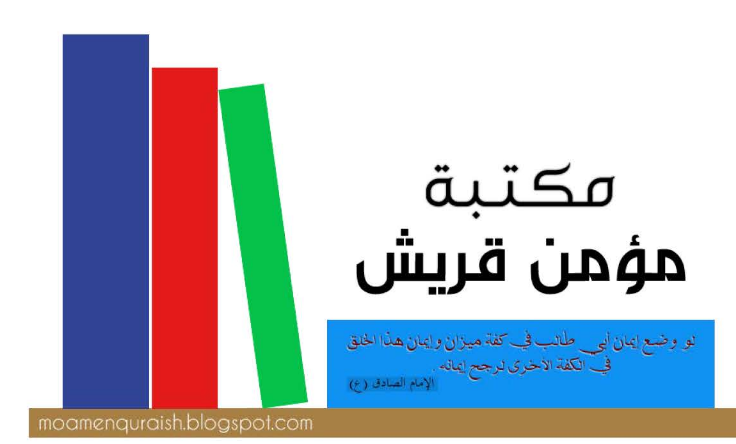
رُوحُ المقاوَمة وفلسفةُ الزمَان

بين مقام المعرفة ومقام العرفان

الحاضر كشاهد على الماضي والمتعالي كشاهد على المتداني



دار الولاء
لصناعة النشر


مكتبة
مؤمن قريش
لو وضع ايمان أبي طالب في كفة ميزان وايمان هذا الخلق في الكفة الاخرى لرجح ايمانه .
الإمام الصادق (ع)
moamenquraish.blogspot.com

روح المقاومة وفلسفة الزمان

بين مقام المعرفة ومقام العرفان

الحاضر كشاهد على الماضي والمتعالي كشاهد على المتداني



شارع الرويس، الرويس، برج البراجنة، بيروت - لبنان
Mob: 00961 3 689 496 | TeleFax: 00961 1 545 133 | P.O. Box: 307/25
info@daralwalaa.com | daralwalaa@yahoo.com | www.daralwalaa.com

SBN: 978-614-420-139-8

* اسم الكتاب: روح المقاومة وفلسفة الزمان / بين مقام المعرفة ومقام العرفان / الحاضر كشاهد على الماضي والمتعالي كشاهد على المتداني

* اسم المؤلف: إدريس هاني

* الناشر: دار الولاء للطباعة والنشر والتوزيع

* الطبعة: الأولى - بيروت - 1436هـ - 2015م

روح المقاومة وفلسفة الزمان

بين مقام المعرفة ومقام العرفان

الحاضر كشاهد على الماضي والمتعالي كشاهد على المتداني

تأليف

إدريس هاني



دار الولاء

لصناعة النشر



مدخل عام

فرضت المقاومة على الناظر مستويين من المعالجة يلازمهما منظوران وطريقتان في الفهم والتفهيم: مستوى المعرفة ومستوى العرفان. وحيث رهاننا هنا على وحدة الغاية وإن تعددت طرق الوصول إليها، فإننا نعلن وفاقا متينا بين حقائق المعرفة وحقائق العرفان، وإن تخالفت وسائطهما ومفاهيمهما ومصطلحاتهما. فالعقل العرفاني هو عقل متفوق متجرد تحضره المعرفة باندكاك الوسائط. بينما العقل البرهاني هو عقل متداني متلبس يتوصل بالمعرفة بتكثير المقدمات وتوسيع المسالك. والتعالي في الأول مطلوب لمقام المعرفة الحضورية. والتداني في الثاني مطلوب لمقام المعرفة الحصولية. والوفاق بينهما آكد لسنة تنوع المدارك وتفاوت مراتب التعقل. ولسنا نوافق على من اعتبر عقل العرفان أدنى من عقل البرهان، إذ يكفي أن ندرك أن المعرفة الحضورية هي أشرف من المعرفة الحصولية.. والكشف أشرف من البحث. تحضر المعرفة للعارف متى اتضح إنه مسلم بنتائجها لصفاء القلب وعلو العقل واندحار داعي الغريزة. فالمقدمات التي يقتضيها عقل البرهان هي في عرف العارف حجب تطيل المسافة بين الذات والموضوع وصراع ضد عوائق

المعرفة ؛ عوائق نفسية بالدرجة الأولى تجعل فعل التسليم بالنتيجة يتطلب تصعيدا في مقاومة التلبيس والمغالطة والمفارقة. فالمعرفة تتحقق في البرهان بمقاومة المغالطة بينما هي في العرفان بمقاومة النفس. ويتضح أن منطق العرفان هو اقصد الطرق إلى الحقائق. ما يعني أن الموضوع لا يتعلق بتعقيدات في المشهد بقدر ما هي تعقيدات في النفس. وليست موانع في الموضوع بل هي تلبسات حول العقول. فمتى سلم العارف تحققت المعرفة بأخصر الطرق. وطبعا إن العرفان المعني في المقام ما كان كمالا متحققا بعد إحراز المعرفة وطرائقها. فلا يعقل أن يتحقق كمال العرفان بنقص في مكنة الفهم البرهاني أو التفهيم على طريق الحصولي واستيعاب المقدمات المنطقية ، يحصل ذلك بالمهارة والتفنن المطلوبين وهو الأفضل أو بالاستيعاب الذي قد تتلف مقدماته وتتلاشى في قبض الحدوس وطيّ مسافاتها. فلا تحقق للّاحق إلا بكمال السابق، ليس بمعنى التمثل الزماني بل بالرتبة يحصل أيضا. إن المعرفة بما هي ثمرة جهاد العقل ومقاومته للتزييف، تصبح موضوعا وأداة للمقاومة أيضا. ولا أقول هنا أن المعنى بجهاد المعرفة هو جهاد ثالث غير النفس، بل هو في طولها، لأن جهاد العقل من جهاد النفس، مادام لا تعبّد إلا بعقل. فالعقل هو موضوع المعرفة والعبودية للحق تعالى. إن العبودية الكاملة تتحقق بالمعرفة الكاملة. على أن التقسيم هنا برسم العقل مجازي جدا، لأن لا قسمة في العقل إلا بالعقل. فالعقل هنا ماهية واحدة متعددة المراتب مشككة قابلة للقسمة الإجرائية في ضوء آنات ووظائف ومراقي النفس في حراكها التكاملي. ليس الأمر هنا نافلة في التعرف حيث يمكن

الاكتفاء بمستوى واحد من المستويين دون الآخر. إنه بهذا المعنى لن تحصل المعرفة بتمامها. لأن المستويين ليسا متكافئين في مديات المنظور وآفاق حقائقهما. فإذا تحصل أن المقاوم يتحرك في شروط وجودية مختلفة ويفهم الحقائق بما يثير عند غيره الدهشة أو عدم الاكتراث أحيانا عند الغير، وجب أن نقف عند منطقين في بناء العلاقة مع العالم. إن الأمر لا يقف عند حدود الفهم، بل يتعدى الى حدود التفهيم. وذلك طبيعي لأن الأمر ها هنا فرع مسألة اتحاد العقل والعاقل والمعقول. ولا يتعلق الأمر هنا بمحض إقحام. ذلك لأن هذه الحقيقة تقع في صلب الوجودانية المقاومة: نكون أو لا نكون. لأن مدار المعرفة هنا مع الوجود ثبوتا ونفيا، أي المدار هنا على إشكالية المعرفة. حيث إنها تعني الوجود. فهي تتقدم بتقدمه وتتأخر بتأخره.. تتعالى بتعاليه وتتدانى بتدانيه.. تثبت بثبوته وتنتفي بنفيه: فلا يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون ـ بالوجود أيضا ـ ما دام تحقق أن العلم من مقولة معلومه وليس محض إضافة. وعليه فإن الشوق إلى المعرفة كالشوق إلى الوجود يتضعف ويشتد حسب مراتب الكمال. وحينما يحصل التعالي يتوجب التعالي ليس بالمضمون فحسب، بل باللغة نفسها. وهكذا فالتفهيم يجب أن يكون من مقام المفهوم. وعليه ندرك أن مقام المعرفة له مداركه ووسائل تفهيمه المختلفة عن مقام العرفان. إن مقام المعرفة هو مقام معرفة العدو بالكيفية التي تقبل البرهنة. ومقام العرفان هو مقام معرفة النفس وهي تتوثّب لمواجهة مصيرها المقاوم في لحظة انعدام تكافؤ القوى. أي العرفان يبلغ بالروح إلى أسرار القوّة الأخرى التي عادة ما تهملها المعرفة الظاهرة وهي في آنات كثيرة

تحدث المفاجأة وتخطّئ الحسابات وتصبح القراءة ممكنة حينئذ فقط بعد حصول الحدث وتتبع منعطفاته بعد ظهورها وبأثر رجعي. وبالمعرفة والعرفان يتحقق موقف الشهود وتدرك روح المقاومة. فالمشهد معرفي والشهود عرفاني وكلاهما عون للآخر في امتلاك روح المقاومة. وهذا ما سعينا في ضوئه للتعرف على أسرار المقاومة معرفة وعرفانا، وهو مدار هذا الكتاب.

الفصل الأول

المعرفة المقاومة
وامتلاك فلسفة التاريخ

في الحاجة إلى مقاومة معرفية

يتعين أحيانا كثيرة ألّا نمنح الأفكار معناها الكامل أو على الأقل وجب وضع القضايا المتلقاة في ظرف من التكثيف الدلالي غير الحقيقي. نتحدث عن أشكال هجينة من الأفكار وجب النظر إليها في سياق غلب الميتافورا المهيمنة على الفكر الشقي. فحينما استيقظ العالم على تغريدة نهاية التاريخ، كان الأمر يتعلق بواحدة من مجازات زماننا الحضاري المتحير في فوضاه العارمة. بينما الحقيقة خلف هذيان الميتافور 4 المشبعة بسكر اللّامعنى هو أن بدايات حقيقية كانت تنحت معناها بصعوبة لكن أيضا بإمعان. إن ما حدث بالفعل يومها أن العالم فقد اليقين بسلامة الأنساق وجبروت حراسها. كسر الحصار وهدم الجدران لتنساب الأفكار انسياب الماء بحثا عن جداول جديدة تعرف أن تسلك إليها بحراكها وتداعيها الحر، لتعانق نماذج مختلفة تحتلها وتعيد اكتشاف جدواها في مركبات جديدة أكثر غنى وأكثر بساطة. وهكذا بات واضحا أننا نتجه إلى ضرب من الاقتصاد في الايديولوجيا، لصالح مصالحات وتوفيقات تجتمع في باحاتها كل أجناس الأفكار وتراكماتها لتنتمي هذه المرة بصفتها أفكارا وليس أنساقا في تركبات جديدة وافتراضية وحدها ما يمنح التاريخ بدايات جديدة وتحولات كبرى.

لقد بات واضحا أننا نواجه تحديات معرفية جديدة على خلفية آثار وتداعيات الفعل المقاوم بعد أن فتح الحياة على عصر الانتصار. والانتصار كما يجب أن لا يخفى يفرض تحدياته المثقلة التي تفوق في خطورتها تحديات الهزيمة. فمن جهة يكون من واجب المنتصر أن يحمي مكتسبات انتصاره جدا. ومن جهة أخرى يكون من واجبه أن يطور مستوى انتصاره أكثر. يجب على المنتصر أن يحقق انتصاراته على مستوى الفكر والوعي بالقدر نفسه الذي يحقق فيه انتصاراته في الميدان. وقد بات واضحا أنه عبر تجارب الأفكار، أن لا قيام لثورة من دون نظرية ثورية. كما لا قيام لنهضة من دون وجود فكر نهضوي. ووجب القول أن لا مقاومة من دون نظرية مقاومة وعقل مقاوم. فالعقل المقاوم هو عقل مفتوح على كل إمكانات المعرفة المفتوحة على كل هذه السيولة من تجارب البشر منذ إعلان نهاية تاريخ الأيديولوجيات، أي مع بداية تحرر الأفكار وتركباتها الجديدة. وروح المقاومة هي من العمق بحيث تمنح فرصة تمثل أنجح ما فكرت به العقول وما أنتجه الفكر. وفي هذا السياق كان من الضروري تطوير رؤية عن روح المقاومة وفلسفتها بما يحقق شكلا من التكييفانية الخلّاقة للفعل المقاوم مع إلحاحات الفكر المعاصر ونماذج المعرفة المعاصرة والروح العلمي والفلسفي الحديث. إن روح المقاومة تعلن عن ميلادها الجديد من ركام نهاية التاريخ بالمعنى المجازي الذي شكل انعطافة لتولدات فكرية جديدة ومتينة التركيب خارج أنساقها التقليدية المعطلة. بتعبير آخر، إننا نجد أنفسنا لسنا في وارد الصياغة المعرفية المتقدمة للفعل المقاوم فحسب، بل إننا لن نظفر بفكر مقاوم دون أن نخوض ضربا من المقاومة المعرفية ضد سلطة الأفكار وهيمنة الأنساق واستبداد

المفاهيم. إن مقاومة أخرى على صعيد القول الفلسفي تقتضي منا صمودا حادا وبناء استراتيجيات دقيقة ومناورات من داخل هذه الأنساق سعيا إلى تحقيق انتصارات جديدة في مربعات متقدمة في صراع المعرفة وتوظيفها لصالح المطالب العادلة للإنسان. من هنا لا مقاومة من دون معرفة مقاومة. وحد المعرفة المقاومة أن تستجيب لشروط المعرفة المعاصرة والانخراط في استشكالاتها الابستيمولوجية والفلسفية بالنقد والاستدماج والاستنهاج والاستفهام. فلسنا نطلب حظا من الاستشكالات المعرفية قديم. وهذا ما يستدعي الخوض في أفق ما نسميه بالتبني الحضاري والتجديد الجذري بأولياته ومبادئه ومنهجيته التي نلخصها في الآتي:

الدين تعاليم وليس نظيمة أيديولوجية

يكفي لفهم هذه الحقيقة أن الدين يوفر من التعاليم ما تتفاوت حوله العقول في الجيل الواحد وداخل الثقافة الواحدة بل داخل النظيمة الواحدة. هناك معايير لتحقق المعرفة الدينية وعدم الشطط في الفهم وفي استعمال سلطة الدين أيضا. وهذا معناه أننا أمام مصدر خام من المعرفة يتيح للعقل أن يتعاطى معه بمستويات من التقدم والتطور لا تحد ولا تحصى، حيث بمقدار تفوق الوجود يتحقق نوع من تفوق المعرفة. إن المطلوب بموجب التبني الحضاري والتجديد الجذري أن التعاليم يعاد بناؤها وفق تطور المعرفة ليس بتسليط هذه الاستشكالات عليها بل بإقحام السؤال الديني فيها. لأن قيمته في امتلاكه جدارة الانخراط في القضايا المعاصرة بحيوية وقدرة على مقاومة الاضمحلال. إن تعاليمنا الدينية نفسها تسعى دوما إلى تحقيق قدر عالي من التكييفانية الخلاقة ومقاومة عناصر الإعاقة. أي كيف تجعل التعاليم تعيد تنسيق نفسها وتصبح منتجة بحيث لا مجال لتجاوزها. وهذا لا يتم فقط بالتكييفانية السلبية بل بالتكييفانية الخلاقة التي تجعل فلسفة الدين نفسها تنخرط في إحراجات العصر عبر محاصرة الفكر الحديث بجملة من الاستشكالات لوضعه في مربع التحدي إزاء القضية

الدينية. وتركيزي على التعاليم الدينية نابع من أنها وحدها من بين هذا التراث، تقدم نفسها خارج منطق الزمان. وعليه، فكل ما تلابس بها من خارج الدين هو واقع في منطق التغيير والتجديد. لأنه لا يلزمنا بالضرورة إلا بمقدار ما يثبت نجاعته. والدين وحده كفيل بأن يحررنا من باقي التراث. لأن الدين وحده يجعلنا أقدر على مقاومة أبوية التراث بوصفه متقدما علينا في الزمان. وكان لا بد أن ندرك بأن التقدم والتّأخر في الزمان في مسارات التاريخ ليس بالضرورة معتبرا. فالمعول عليه هو التقدم والتأخر في الرتبة وشرف الوجود. من هنا يمكن أن يتقدم الحاضر روحيا ورمزيا على الماضي بل يغدو شاهدا عليه. وحيث إن التعاليم تعيد إنتاج نفسها مع كل مرتبة من مراتب وجودنا العقلي، فإن مبدأ التطور والحركة والانتظار تظل شرطا ضروريا لتحقيق التفوق والتكييفانية الخلاقة. وهنا لا بد من اعتبار أن لا وجود للثابت في ما يتصل بالعقل إلا ماهيته المنحفظة التي تنشد كمالها. وهي من حيث هي كذلك تتحرك دونما انقلاب في ماهيتها. من هنا تحدثنا عن فكرة (الثابت المتحول) دون واو العطف. فما يبدو ثابتا هو متحول نحو تحول. لذا رفضنا ثنائية (الثابت والمتحول)، لأنها لا تؤدي الغرض وفيها قصور فلسفي. لأن كل شيء متحرك حتى الجواهر. أما الخوف من أن يطال هذا المبدأ ذاته تعالى فبعيد وخارج تخصصا لجهة أنه منزه نحو تنزيه عن الثبات والحركة معا. لأن ذاته غير معروفة.لأننا إذا ثبتناه حيّزناه وإذا حركناه حيّزناه وفي كليهما نقّصناه وهو الكمال حتى دون قيد المطلق. وحتى التنزيه في حقه يصبح حجابا نوريا يحجب ذاته المتعالية. التنزيه برسم مداركنا العقلية لا حقيقته تعالى، حيث حقيقته كونه بسيط الأشياء الذي هو كل الأشياء. فالتنزيه

مطلقا هاهنا يصبح مشكلا في حق المعتقد بالله تعالى: فالتقييد بالإطلاق شرك ولو بالله كما يقول بعض العارفين. فأطلق الحركة لما دونه تفهم العالم.

وواحدة من مقومات التبني الحضاري والتجديد الجذري، أن الحل المستقبلي يجد تصميمه في مشروع مستقبلي يجعل الحاضر حاكم على الماضي. فهو مشروع مستقبلي يؤمن بسنة التراكم والتوالد المعرفي والتخارجات التاريخية للبنى المنفعلة جوانيا نحو انفعال مهما حاولنا فهمه تفصيلا لن نوفق، لأن منطق تفاعل البنى هو من التعقيد والاحتمالية ما لا يتمكن الوعي من استيعابه جميعه. فالعلم هنا مجمل غير مفصل. والتفاعل في أعمه الأغلب يتم خارج نطاق الوعي. فالانتظار ضرورة مع تكثيف الفعل الإيجابي في ضوء الرؤية المجملة للمصير. لأن لا أحد حتى النقيض سيدرك من مصيره أمرا تفصيليا يقينيا. وإنما اليقين هنا له بعد آخر يوجد عرفانا لا معرفة. البنية تكشف عن تخارجها الافتراضي لحظة اشتداد الفعل. وهذا ما يعني حدوث التحولات التاريخية الكبرى. فهي تحولات لسنا نحن من يحدد زمانها. لكننا نملك الفعل فيها. وبما أن الفعل هنا يتغيّا إحداث التحول في صلب واقع تاريخي وجب في حقه التحول، كان لا بد من تكثيف الفعل ومضاعفته. أي أن الفعل التحويلي التاريخي يبدأ أول ما يبدأ بالفعل المقاوم. فالمقاومة هي الدرجة الصفر للتغيير التاريخي. ومع وجود المقاومة حتما تنطلق ماكينة التغيير التاريخي. كما أن مع وجود المقاومة يصبح عبثا الحديث عن نهاية التاريخ.

إن أهم ركيزة من ركائز التبني الحضاري والتجديد الجذري، أن التعاطي مع التعاليم برسم النجاة الفردية من شأنه

أن يحقق التحول الفرداني والنجاة الشخصية. لكن المقصود من التبني الحضاري ها هنا هو الارتقاء بالتبني من مطالب الشخص إلى مطالب الأمة.. من التمثل الفردي السلبي إلى التمثل الجماعي النسقي الإيجابي.. أي كيف تصبح الأمة راشدة متقدمة فاعلة. وهذا ما يجعل الأمر يتوقف على مقاومة بحجم المطلب التاريخي للأمة.

وعليه، إذا تبين ما المقصود من التبني الحضاري والتجديد الجذري وركائزه المشروعة، تأكد أن المعرفة المقاومة هي معرفة متطورة تقاوم التلبد والحصر والضعف. وهي معرفة تنشئ باستمرار علاقات حيوية مع تعاليمها. إنها بتعبير أكثر مجازا لا تستحم في نهر تعاليمها مرتين. ففي كل طور تنشي أشرف علاقة مع قيمها. إنها إذن معرفة تسلك مسلك التكييفانية الخلاقة مع منتجات عصرها في كل مديات النشاط المعاصر بدأ من البنى الفوقية حتى البنى التحيتية. وهي لا ترى ما يوجب ثباتها في المرتبة الواحدة بل هي متقدمة في وعيها وأدائها بما يتيحه لها بدل الوسع الحقيقي في تحديث نفسها. إن الظلامية لا تشرفها لأنها تؤمن بحكمة الإشراق[1]. والرجعية لا تشرفها لأنها تتشوق إلى الكمال المنتظر. والتداني لا يشرفها لأنها متسامية إلى الحكمة المتعالية ـ لا اقصد هنا خصوص التمذهب الفلسفي بل عموم التوصيف المفهومي واللغوي. فالإشراق خاصية القول الإسلامي ومن شذّ عنه افتضح. والتعالي سر فلسفته من رام عنه هلك. إنها بتعبير آخر خاصية

(1) لا أقصد هنا المعنى المذهبي لفلسفة الإشراق، بل المقصود مجمل الفلسفة النورية التي ألهمتها التعاليم ويستطيع كل امرئ أن يدرك منها قدرا.

الإشراق والتعالي والانتظار: ثلاث مميزات للفكر الإسلامي عموما وللفكر المقاوم خصوصا.

ثمة محاولات لوصف المقاومة بأنها النقيض لهذه المقومات الثلاثة. أي أنهم يصفونها بالرجعية والظلامية ليضعوها موضع النقيض الأيديولوجي للتنوير وفكرة التقدم.. وأيضا يصفونها بأنها انحطاط يناقض الموقف العقلاني.. كما يصفونها بأنها يأس واسترخاص للحياة والتقدم واستهتار بالبنى التحتية... أي نقيض للأمل والبناء. وهنا وجب عدم التسليم بهذا التوصيف المفتعل الذي انطلقت ماكينته التنميطية بشكل واضح خلال معارك تموز وحرب غزة حد السعار.

خاصية الإشراق ـ التنوير

بين أشكال التّمثلات الممكنة، تكون النجاعة والقدرة على الفعل والفاعلية علامات التمثل التنويري. وهو خاصية مميزة سواء أتعلقت بالفكر الديني أو سواه. فالذي يضفي هذه الصفة هو الحامل الشخصي لهذا التمثل ومدى استعداده للفعل الإيجابي. وقد وصف الدين نفسه بأنه رسالة ذات وظيفة تنويرية: إخراج الناس من الظلمات إلى النور. ووصف الله وله المثل الأعلى نفسه بالنور ورسالته بالنور، وجعل السير في هذا الممشى النوراني تحصيلا للنور، ونورا على نور. فلا يعقل أن يصبح الحامل الفردي أو الجماعي لمحتوى ومضمون التعاليم على طرف نقيض من النور. فالظلامية لا يمكن أن تجري على من تحولت التعاليم في خبرته مع نفسه وتجاه العالم إلى نور. إن الظلامية هي النقيض للمقاومة. لأن هذه الأخيرة تسعى لتحرير النوع وإطلاق طاقاتهم الإبداعية واستعادة الكرامة واستيساع الرحمة. فمتى رأينا مظاهر الظلامية وجب التشكيك في كفاءة الحامل. لأن الرسالة جعلت مقاصدها في التنوير لا في الظلامية. وهذا يتحقق أكثر مع التثقيف المستدام للمقاومة أيضا. ما يعني أن المقاومة ليست فعلا ممانعا فقط وليست فعلا عسكريا فقط، بل هي فعل إيجابي لا تحتل منه الممانعة سوى

شرطا من شروطه الأولية. فيما هي من جهة أخرى فعل جامع: سياسي ومعرفي وثقافي وحضاري. ويبدو أن حظّ المقاومة في العالمين العربي والإسلامي هي في ازدياد من حيث تطور أدائها التقني وخطابها العقلاني. فهي تتطور بحاملها في اتجاه التمثل الأرقى للتعاليم. وهي تفيد من أخطاء الحامل التاريخية لصالح مستقبل أفضل. حظ المقاومة أنها في طليعة المطالب الكبرى للجماهير العربية والمسلمة، وفي أولويتها مطلب التحرر من آخر أشكال الإحتلالات خطورة في المنطقة. وقد أجادت المقاومة حتى في ثقافتها الطليعية اليوم حيث تنهل من تراثها وثقافتها المحلية مانحة الدين عنوان لاهوت التحرير، فيما كان من شأنها أن تقلب المنظار التقليدي الذي تذرعت به القوى المناهضة للدين من حيث كان ووجب أن يظل خارج تطلع الأمة في التحرير والنهضة والتقدم. وذلك قبل أن يصبح الدين هو الملهم الأكبر ـ رغم ما يصلنا هنا وهناك من تصرفات وسلوكيات حمقاء لبعض الحامل لهذا الدين ـ لحركة التحرر والتقدم، ما يفرض تعديلا في الرؤية التقليدية تلك وإحداث قطيعة مع الرؤى التقليدية للدين التي حاربته بالأنوار وفكرة التقدم وأيديولوجيا التحرر قبل أن تجده في صلبها يمنحها من السحر والباعثية ما لم تعد تقدمه أي أيديولوجيا أخرى. ما يعني أن المقاومة كان لها الفضل في فرض إعادة السؤال على مجمل أحكام القيمة التي كانت تسعى لاستبعاد أهم مقومات القوة في روح التحرر عند المحلّي. وهي إذ تفرض ذلك وجب أن تكون في مستوى هذا التحول، بمزيد من تطوير أدائها وتنوير فكرها.

خاصية الانتظار ـ أمل الشعوب

الذي جعل العالم يقبل بخطاب العدمية منذ أن لم يعد للأيديولوجيا الشيوعية ظهرا يحمي تطلعاتها مع انهيار الاتحاد السوفيتي، هو بلوغه حافة اليأس. إن البشرية لن تقبل أن تحلم بمستقبل لا يحمل ضمانات حقيقية لتحققه على النحو الأفضل. وقد لا توجد اليوم أيديولوجيا تستطيع أن تمنح العالم ضمانات على مدى قدرتها على تحقيق حلم البشرية في الرفاهية والعدالة والتحرر. حتى الليبرالية التي لا زالت تستقوي على باقي نظائرها باتصالها المباشر بغرائز النوع ورغباتهم ونزعتهم الاستهلاكية الآنية لم تعد في ظل الانهيار الذي تواجهه سوق العملات العالمية وهشاشة النظام الاقتصادي الرأسمالي اليوم في كبرى مراكزه، لم تعد قادرة أن تمنح ضمانات حقيقية تعيد للناس الثقة في نجاعة النظام الرأسمالي. إنها مرحلة جديدة في دوّامة اليأس من كافة الأيديولوجيات، ليس في مدى واقعيتها المشكوك فيها، بل أيضا في أن المعرفة الدينية تتطور من خلال انفتاح حاملها على علوم الإنسان نفسها في صياغة الفهم الديني الأنجع وبناء فلسفة للدين تملك تقديم تفسير لما لم تملك باقي الأنساق تفسيره، بخلاف غيرها من الأيديولوجيات التي لم تعد تملك أن تطور في مفاهيمها

وتصوراتها. وهنا أتحدث عن الأيديولوجيات لا عن المعرفة. فالمعرفة تتطور في عالمنا بشكل أكثر إيجابية من الأيديولوجيات. فهذه الأخيرة لا زالت تحتفظ بمقدماتها وقواعد تفكيرها وأحكامها في عالم تتغير معارفه وتتحول أنساقه. اليوم بتنا أمام حتمية الفاعل الديني والروحي الذي أظهر أنه ليس فقط قادرا على منح حامله بعضا من الدفع الروحي، بل إنه نجح في منح الطمأنينة لحامله وللمجتمع بصورة لا تضاهى. فالمستقبل في المنظور الديني أكثر استقرارا وحيوية من كل المنظورات الأخرى. وحينما تستدخل المعرفة الدينية مفاهيم جديدة في فهم المستقبل وتندمج معها، تحدث حيوية أكثر وطمأنينة أكبر. إن القوة التي يمنحها مبدأ الانتظار والأمل في المستقبل لا تعادلها قوة. وحتما إن القوة الأكثر اطمئنانا للمستقبل والأكثر إيمانا بانفتاح التاريخ على الإمكان هي وحدها من تمنح حاملها قوة أكبر على الممانعة وروحا لا ينضب لمقاومة المحتل.

خاصية التعالي ـ الشعور بالنصر ورفض الهزيمة والاستسلام

حظ لاهوت التحرير بالجملة من هذا الشعور ليس غايته معاقرة التعالي بخصوص النخب إلى مراتب الميتا ـ بشرية. بل حظه بعث الناس إلى هذه المراقي التي يتفوقون فيها وينتصرون بها على ضعفهم وقصورهم. فرصة الإحساس بالتعالي يوزع بالسوية على الناس متى تعلقوا بحقائق هذه التعاليم. وهم وحدهم من يملك الارتقاء فيها وبها. وهذه الخاصية وحدها تمنع أصحابها من القبول بالهزيمة والاستسلام والتخلّي عن الكرامة. لأن كل هذا مرهون بوجودهم من حيث هو وجود متعالي تصلح مطالب الحق والعدل والكرامة فيها حدّ «نكون أو لا نكون». إنها ليست مطالبهم في الوجود بل هي مطالبهم مع الوجود وبه.

وحيث باتت كل هذه الخصائص عنوان نحو ما من أنحاء هذا الوجود المقاوم، كان لا بد أن تنفتح المعرفة المقاومة على حقائق الوجود وفلسفته وصلته بالرتب والزمان وغيرها من المفاهيم الضروري في بناء فلسفة مقاومة تعي دورها التاريخي كما تعي مرتبتها في الوجود.

في قيمة الزمان وأهميته المفهومية

ليس الزمان مجرد قيمة مضافة، بل هو القيمة نفسها مذ غدا وعاء للفعل ومسارا للوجود. بل هو تعبير عن مخاضات الوجود. ببساطة إنه الوجود في حالاته المختلفة وأنحائه المتعددة. فلو اعتبرنا بجدية ما رامه هيدغر من أن اللغة مأوى الوجود ـ وهي كذلك مذ كان الوجود لا يقوى على التعبير عن نفسه إلّا من خلال اللغة ـ فإن الزمان هو كيفية تحقق الوجود ومعيار حضوره. السبب واضح: إننا نفقد الزمان مع فقد الوجود، حتى لو أمكننا تخييلا تصورهما على نحو من الوجود المستقل غير المحايث: تصورا لا يبرح صقع الذهن المحض. وحيث وجب التذكير بأن سقف حديثنا هنا يتحدد بالمتعين على سبيل الإمكان لا على سبيل المطلق. أي إن مقصودنا بالوجود الزماني بهذا المعنى هو ما يقع في صقع الإمكان والفقر الوجودي. فالزمانية هي عنوان هذا الفقر. ومن هنا أمكننا القول أيضا أن التاريخ عنوان فقر وجودنا الجماعي. على أن هذا الفقر هو ما يمنح لحركة التقدم معنى في الزمان ويجعلها مطلبا دائما في الوجود. فلأن وجودنا الفقير أي الزماني في حالة شعور بالنقيصة وجب الارتقاء به إلى أرقى كمالاته. وحينما يواجه الوجود ما يعيق انطلاقه في مراقي الكمالات، ويحس بأن زمانيته باتت مستوقفة

بعناصر الحصر والإكراه، أي أحس بالعدم، وجب أن يثبت جدارته في الوجود أولا وفي التقدم بالوجود ثانيا عبر الفعل المقاوم. فتكون المقاومة في مثل هذه الحالة عنوان الإصرار على الوجود ورفضا للعدم .

لقد كان إدخال الزمن في الفيزياء الجديدة باعتباره البعد الرابع فتحا عظيما نقل الفيزياء من طور إلى آخر جعلنا نعيد النظر في أصول المادية التقليدية بما فيها امتدادها الحديث في الميكانيكا النيوتونية، إلى حدّ باتت الفيزياء الجديدة أقرب إلى منطق الغيب منها إلى منطق المادة، لكثرة خضوعها للنسبي وعدم التوقع واللّادقّة. وقد ازدادت أهمية الزمان حينما تعدّى الأبعاد الأخرى حتى بات هو البعد الأساسي الذي يحدد مصير العالم، ما جعلنا ندخل نموذجا جديدا يهمل كل شيء ولا يكاد يبقي إلّا على مفهوم الزمان بوصفه المعامل الأقوى والمتغير الأهم في معادلة تكوّن الظواهر الفيزيائية. وهو الزمن الذي لم يعد يجد معناه في الملاء فحسب، حتى لو تعلق الأمر بالمجال الفيزيائي، بل أحيانا يجد معناه في الفراغ منذ بدأنا نتحدث عن الدرجة الصفر للزمان: (To)، التي لعبت في الفيزياء الجديدة ما لعبه الـ(الصفر) في الرياضيات الحديثة.

كما كان للزمن مدخلية في تحديد قيمة السلع إذانا بدخول أكثر المراحل جدية في مسارات الاقتصاد السياسي ـ مع ظهور الكلاسيك ـ ما كان لماركس أن يغير منها سوى بافتعال الزمن الضروري اجتماعيا لإنتاج السلع. والزمان الجماعي أو الاجتماعي هنا تعود قيمته إلى عوارض الزمان لا إلى حقيقته، باعتباره زمانا مكثفا ومعقدا وليس زمانا بسيطا كما هو الزمان الفردي. والإضافة

الماركسية هنا تكمن في أنها أضافت للزمان ما هو من صميم ما به الاشتراك؛ أي الزمان نفسه بوصفه تكثيفا بفعل عارض الاجتماع الذي يمنح القيمة للسلع والخدمات: الزمان الاجتماعي. وهي بذلك لم تغير من حقيقة دور الزمان في خلق القيمة، بقدر ما عزّزت من دوره ذاك ومنحته التكثيف اللازم الذي أغضى عنه جمهور الكلاسيك منذ آدام سميت ومرورا بريكاردوا وجون ستيوارت ميل. وعلى أساس هذا الدخول الملكي للزمان في اعتبار صناعة الثروة وخلق القيمة، حدثت الثورة الكبرى في الاقتصاد وإنتاج الثروة وكل مظاهر التحولات الاقتصادية العالمية المشهودة.

ولا يزال التحليل النفسي يعير الاهتمام للزمان ليجعل أعراض الحاضر شاهدا على خطأ في السلوك الماضي، وهو الأمر الذي سيدفع مؤسسه سيغموند فرويد لوضع عمل كامل للحديث عن زمن الحرب دفعا بالتحليل النفسي إلى اكتساب الكثير من المعنى والفهم للظواهر النفسية. أي انتصار الحاضر على الماضي بمحاكمته والكشف عن التباساته وتدارك أخطائه.

وكان التاريخ أيضا علما خطيرا بتعبير فاليري لوقوعه في الزمان. باختصار شديد إن الزمان دخل عالم المعرفة بامتياز. وما كان للمعرفة مذّاك إلا أن تأخذ بعدها في الزمن ـ نسبية الحقيقة ـ وما كان للزمن إلّا أن يجد معناه في جدل المعرفة ـ الزمان النسبي ـ ففي هذا الجدل بدا واضحا أننا أمام تاريخانية المعرفة بقدر ما نحن أمام الزمان بوصفه النتاج الأخير لسلطة المعرفة. فالمنتصرون هم من يمتلك سلطة الزمان وتوظيف المعرفة في الزمان. فالغالب والمنتصر هو من يكتب التاريخ. كما أن الغالب والمنتصر هو من يحدد كيفية نشوء الأفكار وهيمنة نماذجها وتشكل سلطانها في شتى

الحقول وعلى الضمير العلمي والأخلاقي. لقد ولّى عصر الحقيقة المطلقة كما ولّى عهد الزمان المطلق. وليس أمامنا ولا وراءنا سوى منسوب من المعرفة والزمان في جدلهما المتكافئ وغير المتكافئ أحيانا كثيرة. وفيهما نعلن انتصاراتنا كما فيهما فقط نعلن هزائمنا. وعليه، كان لا بد أن يقال أن الهزيمة التي يراد لها اليوم أن تصبح الحقيقة المطلقة المساوقة للوجود العربي، كما النصر هو الحقيقة المطلقة المساوقة للوجود الصهيوني، ليست كذلك. فالنصر نسبي والهزيمة كذلك. ومن يجعلها مطلقة هو إرادة النصر وإرادة الحقيقة من جانب أو إرادة الهزيمة وإرادة الباطل من جهة أخرى. نعم، كان لا بد أن يقال أن الهزيمة هي الأخرى خيار وليست أمرا مرفوضا إلى الأبد. ثمة في مواجهة ما تنهض به المقاومة ويضمنه روحها المتدفق، إرادة الهزيمة. ومن هنا علينا قراءة الحدث المقاوم وفلسفته في ضوء أهمية الزمان وتخارجاته، باعتباره مفتاح فهم العلاقة الجدلية بين الماضي والحاضر والمستقبل. ذلك من منطلق أن سؤال المقاومة هو سؤال الزمان. فالمقاومة تحاكم الماضي وتغير الحاضر وتصنع المستقبل.

كان من الضروري إذن في ضوء المعطيات السابقة الذكر، مقاربة المقاومة انطلاقا من فلسفة الزمان المعاصرة ليس من حيث ضرورة تعميم البارادیغم الفلسفي الحديث على باقي حقول المعرفة المعاصرة وتأويل حوادث العصر ـ حيث لسنا ها هنا بصدد مقاربة إبستيمولوجية ـ بل لأن المقاومة هي هذا المركب الذي يحتوي على كل أبعاد الظاهرة الزمانية سواء تجلت في بعدها الفيزيقي أو الميتافيزيقي. فالمقاومة هي فعل مركب تتجلى فيه كل قوانين الكون كما تتجلى فيه كل قواعد المعقول الفلسفي. أي لنجرب أن نطبع

العلاقة بين المقاومة والمعرفة في اتجاه يمنحها القدرة على إنجاز ثورتها الكونية وإحداث التحولات الكبرى في صميم مفهوماتها وممارساتها. ويبدو أن ذلك يتوقف على طريقة مقاربتنا للزمانية المقاومة ومدى نجاحنا في استدخال متغير الزمان في معادلة المقاومة والصمود على صعيد علم الحرب. وهذا في تصورنا يتطلب أن يستمر الفعل المقاوم ويراكم من إنجازاته ليتمكن من إحداث الطفرة في صميم منظوراته وفلسفته وقيمته في مجمل المعرفة والحقائق المعاصرة. فالتعاطي مع الحدث المقاوم كما لو كان حدثا تاريخيا وقع في الماضي فيما روحه تراجعت وآن لها أن تتراجع أمام وهم الأمر الواقع الذي تحدثه قوة البارود والسياسات القائمة على التزييف والدعاية السمراء وفرض المعنى الخاطئ لتاريخ الصراع، هذا من شأنه أن يجعل المقاومة خارج منطق المعرفة الحديثة وتاريخها، ويجعلنا لا نقيم لها وزنا في حسابات الحاضر أو المستقبل إلّا بالمستوى الذي نتفاعل فيها مع أفلام شارلي شابلان بالأبيض والأسود وتضخم سرعة العرض. فكل الظواهر الإنسانية لا تتطور إلا بأن يصبح الزمان عنصرا في معادلة صيرورتها النظرية والعملية. أي حتى نقبض على المعنى الجديد والمتحول للمقاومة عليها أن توجد دائما وتستمر في الزمان. فإذا ما أصبحت جزءا من تراثنا، فإن عوامل التعرية كفيلة بجعلها من أحجيات الماضي. وهذا في تقديرنا ما يسعى إليه دعاة التسوية على أرضية غير مقاومة.

التشارك في الكون الفيزيقي

أقصد بذلك أن المقاومة هي مثال أكبر لما تتقوم به الحركة الكونية في علم الأرض أو الفضاء.. فهو مجال للفعل ورد الفعل. الحقيقة التي كرستها الميكانيكا بالتعبير النيوتوني الشهير: لكل فعل رد فعل مساوي له في المقدار معاكس له في الاتجاه. وهي الحقيقة التي لم تدرج ضمن الحقائق التي قطعت معها الفيزياء الحديثة. فلا زالت الفيزياء الحديثة تعنى بردود فعل الأشياء، مع فارق جديد هو أن الفيزياء الحديثة والكوانتا لا تقف عند هذا الحد من الدقة واليقين في رصد ردود الفعل. إننا متى تعمقنا في الفيزياء الميكروسكوبية تعذر علينا التنبؤ والسيطرة على مقاييس الأشياء. ومن هنا لا أحد يتنبأ بمدى ردود الفعل ومداراته إن حدث. وهذا يعني أن الفيزياء الحديثة هي أكثر تواضعا من الميكانيكا الكلاسيكية في رصد وقياس مدى ردود الأفعال. فضلا عن أن مجال دراسة ردود الأفعال في الفيزياء الذرية يجعلنا ننظر إلى ردود الأفعال وانعكاساتها بما يفوق مستوى الفعل. فلا ينبغي أن يقال أن انعكاسات وردود فعل الذرة حين تفجيرها يساوي تقنية تفجيرها التي قد تكون تقنية دقيقة ولكنها ليست في حمولة حجم الدمار الذي يحدثه الانفجار. ومهما كان الأمر فثمة ما يوحي بأن المقاومة

كلما احتضنها المجال الصغير كلما كانت ردود فعلها وانعكاساتها أقوى كمّا ونوعا. وهذا ما حصل في جنوب لبنان وغزة. فهما مجالان بمقاييس الجغرافيا صغيران. لكن يبدو أن ما لا يجزّأ من الأقاليم قابل لأكبر انفجار وصمود وانعكاس من تلك البلاد الكبيرة العاجزة عن ردود الأفعال. فليس اتفاقا أن من هذه الأحياز الميكروسكوبية بالمقاييس الجغرافية تنطلق أقوى مقاومة. ويتعين أن نضيف أننا نتحدث هنا بالمقاييس المادية. لكن ماذا لو استدخلنا عناصر أخرى تتعلق بحجم الذكاء البشري وقوة الإيمان التي تجعل الشخص يعادل بالعدد الغفير من خصومه في مواقع الصمود. إذا برحنا عالم الميكروفيزياء وقواعد الميكانيكا، سنجد أن باقي الكائنات الحية من شتى الأجناس يتوقف استمرارها على أساس الصمود والمقاومة. فالبقاء من دون صمود هو تخريف لا يوجد إلا في الإنشاء الاستسلامي لبني البشر. يعلمنا التاريخ أننا اليوم قادرون على أن نكون شهودا على ما مضى من حياة النوع. لقد منحنا التقدم العلمي ناظورا صلبا ودقيقا يكفي لفهم ما جرى وتقييم ما حدث. لقد عاش الإنسان يجهل الكثير من الظواهر من حوله. وبعض من تلك الظواهر كانت تتهدد وجوده في كل حين. وهي لا تتوقف في نشاطها بحرا وجوا وأرضا حيث لا يعلم عن نشاطها شيئا. لا سيما ما يتصل بعالم الميكروبات التي جهله عصر ما قبل باستور جهلا تاما. اليوم فقط ندرك ذلك. ونحصن أنفسنا بوسائل وقائية ومضادات حيوية مختلفة. لكننا لم نتساءل كيف هزم الإنسان بمقاومته الطبيعية كل هذا التحدي الميكروبي وكل الأوبئة طيلة آلاف السنين وهو لا يعرف عن عدوه شيئا. أقول: حينما يكون هناك إصرار على الوجود وإرادة للبقاء، فلا شيء يمكن أن يهزم

الإنسان مهما تفوق عليه العدو ومهما اختفت خططه الهدامة ومؤامراته القذرة. إن المقاومة لازمة الوجود الحي. وحتمية طبيعية حتى لو اقتضى الأمر أن تصبح مقاومة لا واعية. إن كل ما جعلنا نصمد حتى اليوم أمام كيان منظم جدّا في شروط عربية مزرية محكومة بالفوضى والارتجالية والغفلة، هو أننا حتى اليوم استطعنا أن نقاوم إسرائيل بوعينا وبلا وعينا.. بالتخطيط وبالطبيعة.. وهذا هو ما يجعل المقاومة ضرورة والنصر حتمية.

ووجب القول إننا إزاء إسرائيل وجب أن نتعلم من خصومنا. فإسرائيل ظلت في المنطقة طيلة 60 سنة بسبب الدعم اللّانهائي من المعسكر الغربي وأيضا نتيجة صمودها. إن أخوف شعب في العالم استطاع عبر صمود ستة ساعات أن يهزم أشجع شعب في العالم ويفرض عليه رهاب الهزيمة لمدة 60 سنة من الزمان. من هنا فإن إسرائيل هي أكثر فهما لمنطق المقاومة من غيرها، لأنها تدرك أن لا بقاء من دون مقاومة و أن المقاومة تستعمل بجدية، منطقها ذاته في البقاء. فإذا انضافت الشروط الموضوعية المحيطة والمتوفرة للمقاوم الفلسطيني أو اللبناني ـ عمق عربي وإسلامي على الأقل شعبي، عامل التاريخ والجغرافيا... ـ فإن هذه المتغيرات في معادلة الصراع ستكون حتما في صالح المقاومة العربية والإسلامية وليست في صالح إسرائيل مهما ازداد الدعم الغربي لها وبالغ.

التشارك في الكون الميتافيزيقي

أقصد بالميتافيزيقي هنا التطور الحاصل في المنظورات الفلسفية. ولا أعني به العالم الآخر الذي يشكل لوحده متغيرا أساسيا في معادلة الصراع. وعلى ذكر العامل الروحي المتكون على أسس العقائد الإيمانية فإننا نجد أن كل التعاليم الدينية تحث على الصمود والصبر وعدم الاكتراث لما يصيب الذات وعدم طلب غير ذات الشوكة في طلب الكرامة والتحرر والاستقلال. لكن ما نعنيه هنا بالكون الميتافيزيقي هو جملة الأفكار والنظريات التي تراكمت في مجال التفكير الفلسفي بخصوص الزمان، جعل من الزمان نفسه متغلبا على الجغرافيا. ومنها ما له صلة بفلسفة الزمان:

تاريخانية المقاومة أم المقاومة كحدث بنيوي؟

قد يحار الباحث في أي حقل من حقول الاشتغال ووفق أي النماذج المعرفية يتعين معالجة الحدث المقاوم. ويبدو لي أن الأمر هيّن جدا ما دمت لا أرى خصومة حقيقية بين النزعتين التاريخية والبنيوية، متى نظرنا إليهما خارج الاستحقاقات الأيديولوجية التي تفرض على كل اتجاه وتيّار أن يحتفظ بأحكامه الكلاسيكية وخصومته التاريخية للفكر الذي جاء على أنقاضه. ولكن عدم التقيد بأعراض الخصومة تلك رهين بمستوى تعاطينا مع المفاهيم خارج إكراهات الأيديولوجيا أو على الأقل خارج سلطتها المطلقة. ولا نحتاج أن نطنب أكثر حول أي التعاريف أنجع لتحقيق المصالحة بين التاريخ والبنية لصالح فهم أعمق للمقاومة. لأن مشروعية هذا الترجيح لا تقوم على العبث، بل على مقتضى ما فرضه الحدث المقاوم نفسه من أنه بات حتى اليوم عصيا على المقاربة الخالصة لكلا المنظورين. بل لا مجال لفهمه إلّا بتوافق بين المنظورين دفعا للمفارقة. فالتاريخ وحده لا يفسر كل أسرار نجاح المقاومة كما أن البنية لا تضعنا أمام كامل الفهم. وحيث أشرنا مرارا إلى هذا النوع من إعلان المصالحة إلى حد التكامل في المنهجية والرؤية بينهما، لمّا اعتبرنا أن البنية لا تفعل إلّا في التاريخ. وأن لحظات تخارجها

هي لحظات تاريخية بامتياز. أمكننا القول إذن أن المقاومة بقدرما ما تبني عناصرها تصنع تاريخها. فهي تتفوق بنيويا وتاريخيا. إن تاريخ المقاومة هو تاريخ تفاعل بنيتها الثقافية والاجتماعية والسياسية. بل هو تاريخ بنية وبنية تاريخ. فالتاريخ مجال تفاعل البنى بقدر ما أن البنية تحتوي تاريخها الخاص وتسمه بميسمها. ومبلغ علمي في هذا الجدل أنه ليس معرفيا خالصا. ولا يوجد في عرف المعارف ما هو خالص مطلقا. وإذا كان الأمر كذلك فلنختار من المعرفة الأكثر تفلتا من السلطة العارية والأكثر نجاعة وقدرة على تحقيق منجزات واقعية. أجل، لم تكن المعرفة يوما مجردة. أي مجردة عن سلطان يتربص بها ويتحكم بسياستها ويؤثر على وجهتها. بل هي في مظهر من مظاهرها، وظيفة وسلطة. ليس التاريخ وحده ذلك العلم الذي أفرزته الحروب والانتصارات والانهزامات، حتى يقال أن التاريخ يكتبه الغالب. بل كل حقول المعرفة ـ نظرا لتداخلها ونظرا لانشدادها إلى إرادة القوة هي ناتجة عن القوة كما أنها عنصر من عناصر صراع القوى. وحيث ظل التاريخ وفيّا لهذا الدور ولوظيفته، وجدنا أن المجالات التي تعدم تاريخا انتعشت فيها الدراسات الأنثربولوجية الحديثة. أي تلك التي نازعت التاريخ سلطته. لقد وجدنا الأنثربولوجيا الكلاسيكية المتضامنة مع التاريخ وقعت في الإشكال نفسه. لكنها مع أمثال شتراوس وكالستر، تجنح إلى البنائية وتتشدّد فيها بل وتدير ظهرها كاملا للتاريخ، لأنها لم تجد في التاريخ ما يمكن أن ينصف تلك المجموعات التي منحها المحتل الأوربي يومها شرف البقاء محميات متوحشة على هامش مدنيته.

بالتاريخ حدثت كل هذه الفظاعات، فوجب بالبنائية رفع هذا

الظلم. وهذا ما حاوله الاستعمار في المنطقة العربية وما فعلته الحركة الصهيونية التي حاولت عبثا الاستقواء بالتاريخ ـ ليس من حيث السردية الصهيونية وحفرياتها التي باءت بالفشل في إسناد مشروعية وجودها ـ بل أعني الاستقواء بتاريخانية تفوق الأكثر تقدما وارتباطا بالمدنية الغربية على المحلّي، وإسناد مشروعيته على حق المتحضرين في التسلط على البدائيين. كان الكيان الصهيوني منذ نشأته يكرس هذه النزعة ويعتبرها سنده في البيت الغربي. بتعبير يوسي ميلمان: «لقد عاش معظم قادة الصهيونية تحت وهم أن العرب الذين يشكلون غالبية سكان فلسطين سيهللون بعودة اليهود ثانية وأن الغبطة ستملأ قلوبهم بـ (إحياء الصحراء) ونمط الحياة الغربية المتقدم الذي وعدهم به المهاجرون اليهود. وهنا وقف الصهاينة قاصرين في إدراكهم أن للعرب طموحهم القومي وأنها لخيبة ظن أن نعلم أن الصهاينة الذين وضعوا هذا الوعد في إطار قوة الأفكار لإحداث تغيير إنساني وتاريخي تجاهلوا هذا الطموح العربي الموازي لطموحهم»[1] .

التاريخ إذن لم ينصفهم. وحتى الأنثربولوجيا الكلاسيكية لم تنصفهم. فكان لا بد من إدارة الظهر للتاريخ والبحث عن المعنى الرمزي في تعبيرات المعاش وأساطير القوم واختراق المعنى في تاريخ من لا تاريخ له. وكان ذلك خطيئة أخرى لا تقل عن الأولى. فإذا كان الغالب حاول أن يكرس مغالطاته بالتاريخ، فإن المغلوب حاول تكريس مغالطاته بالأنثربولوجيا. ويبقى الأخطر من ذلك، أننا

(1) يوسي ميلمان: الإسرائيليون الجدد، ص 69، ت: فاضل مالك البديري، الأهلية للنشر، الأردن 1993.

لمّا نرفض التاريخ بوصفه قيمة معرفية متغلّبة ذات وظيفة سياسية، نكون قد أمضينا على أن هناك تاريخا خاصا لأمة من الأمم وجب أن يعاين خارج منطق التاريخ الكوني. الدعوة قائمة إذن بأن يخترق الخاص الكوني نفسه، لصالح قراءة تاريخية ـ أنثربولوجية تجعل الخاص شاهدا على الكوني. المقاومة هنا لم تعد حدثا خاصا يتصل بتاريخ منطقة لها سنن تاريخية تلزمها، بل أصبحت حدثا يمتد إلى باقي حقائق التاريخ. ليجعل المقاومة ليست حدثا خاصا بظروف ثقافة وتاريخ يمتح من ذاكرة خاصة، بل هو حدث يشهد على التاريخ الكوني كله بوصف المقاومة لحظة عارمة من لحظات انتصار الكوني على الخاص.. والطبيعي على الشاذ. فالاستعمار هو حدث شاذ والمقاومة ردّ فعل طبيعي.

تستطيع المقاومة بإنجازاتها من إحراز تقدم في جدل البنية والتاريخ، لأنها هنا تخترق بإنجازاتها التاريخ ولا تكتفي بقدرها. بل إننا لسنا اليوم في حاجة إلى تأويل الخطاب المقاوم كما كنا بصدد تأويل أساطير جماعات وحشية في أدغال القارة الأمريكية أو الأفريقية أو في أستراليا. بل علينا أن نقرأها داخل الحدث التاريخي ومن بابه الواسع، لأنها هي نفسها تحولت إلى فاعل تاريخي وغيرت معادلات تاريخية إقليمية ودولية. إن الفعل المقاوم ليس أمرا متروكا للوصف وللمعالجة الهامشية كما لو كنا أمام حدث غير تاريخي. لذا لا يضير أن يتصالح التاريخ مع البنية في تجربة المقاومة، لأنها ظلت الحدث الذي يلتقي عنده ما هو واعي من التاريخ وما هو غير واعي من جدل البنية. إن المقاومة تستند إلى التاريخ بقدر ما تستند إلى جدلها البنيوي اللّازمني المحاط بأسرار تفاعلها الخاص.

المقاومة حينما تصنع تاريخها

لكي تستكمل المقاومة مهمتها وجب أن تدرك حدودها المعرفية. وهذا من آثار المقاومة حينما تكون مقاومة في حدود العقل. تتمرد المقاومة على حقائق التاريخ، فترفض أن تمارس عليها شهادة التاريخ الغالب. وليس أمامها لتمارس شهودها على الحاضر أو المستقبل إلّا بأن تتمكن من أن تمارسها على الماضي أيضا. فترفض تاريخا وتشرع في كتابة آخر. ونجاحها في هذه المهمة رهين بتفوقها في الميدان وقدرتها على ترجمة ذلك على مستوى الوعي، ترجمة في حدود العقل لا تنهزم بانهزام الواقع ولا تتعالى على شروط الواقع. فكما صنع الغزاة تاريخهم وجب على المقاومة أن تصنع تاريخها.. وكما صنع المهزومون تاريخ استسلامهم وجوب أن تصنع المقاومة تاريخ انتصارها. وطبيعي أن المقاومة ستضطر أن تصنع تاريخها الحديث جدّا انطلاقا من النصر الذي حققته على أرض هي ليست تختلف عن الأرض التي شهدت الهزيمة نفسها. فكما أمكن العدو أن يدخل في تاريخ هزائمنا قيمة الهزيمة وشعورا مكرسا لها وجب على المقاومة أن تتحرر من هذا التاريخ وتدخل الإحساس بالانتصار في تاريخنا كقيمة وحقيقة وأمل. إن التاريخ يبدأ في العادة مع نهاية المعركة، لأن الحرب

تظل مستمرة ولو بمعنى آخر. أي ستستمر في شكل سياسات واتفاقات وقوانين. إن التاريخ هو صناعة تكسب قيمتها وأبعادها في نتائج الحروب. كما أن الحرب يجب وفق ما يرى البعض أن تمارس انطلاقا من توظيفها للمعرفة التاريخية. إن المعركة التي تخاض اليوم، هي في الحؤول دون امتلاك المقاومة لتاريخها. أي يريدونها أن لا تخوض حربا من خلال استعمالها للتاريخ. بمعنى أوضح لا تملك القدرة على خوض الحرب.

علاقة التاريخ بالحرب كما في قراءة فوكو لبولانفيلييه تعكس إلى حدّ ما هذا الهاجس. فالتاريخ والحرب يكادا يشكلان جدلا قائما. لقد «جاءنا التاريخ بفكرة أننا في حرب، وأننا نقوم بالحرب من خلال التاريخ»[1]. رفضت العلوم الإنسانية التي اكتسب الكثير منها برفضها للتاريخانية، ربما أيضا بسبب ذلك الاختزال نفسه الذي عرّف به فوكو التاريخانية من حيث ليس في نهاية المطاف إلّا تلك العلاقة التي تردّ الحرب إلى التاريخ وتردّ التاريخ إلى الحرب. «التاريخ لا يروي إلّا الحرب، ولكن هذه الحرب لا يستطيع أبدا التاريخ أن يرويها بشكل كامل»[2]. الحرب تسند هذه المعرفة كما أن المعرفة نفسها تسند تلك الحرب.»تخاض الحرب من خلال التاريخ، ومن خلال التاريخ الذي يرويها. ومن جانبه، فإن التاريخ لا يستطيع إلّا تحليل الحرب التي يكتبها عبر التاريخ»[3].

(1) ميشيل فوكو: يجب الدفاع عن المجتمع، ص 178، تـ: د. الزواوي بغوره، ط1 ـ 2003، دار الطليعة، بيروت.
(2) المصدر نفسه، ص179.
(3) المصدر نفسه، ص179.

وانطلاقا من هذه الرؤية لبولانفيلييه التي وقف عندها مليّا ميشيل فوكو، نرى أن الحرب أيضا هي هنا في هذا المربع من امتلاك صناعة التاريخ ؛ أي امتلاك المعرفة الضرورية لخوض الحرب وتحقيق الانتصار. إنهم يريدون عبر خطاب البروباغوندا والتشويه أن يحولوا دون تمكن المقاومة من بناء تاريخها ونقله للأجيال بوصفه انتصارا فاضحا لخرافة القهر الصهيوني وهزيمة السياسات العربية ـ على الرغم من أن المقاومة أهدت انتصارها للأمة جميعها ـ والأهم من ذلك أن تحول دون امتلاكها القدرة على توظيفه في المعركة. لأنهم يدركون أن المقاومة إذا ما فشلت في صناعة تاريخها، فإنها ستخسر حتما المعركة. فمن هنا إذن يبدأ الرهان. «هذا ما جعل التاريخ يغطي الطبيعة كلّية. لا تستطيع الطبيعة أن تتكلم عندما يبدأ التاريخ في الكلام. لأنه في الحرب، التاريخ هو المنتصر دائما»[1]. إذا كان لبولانفيلييه قد ميّز بين الوحشي والبربري، فقد اعتبر الثاني هو الأخطر على الحضارة. ويظهر أنه حتى لو قيل أن إسرائيل اليوم هي صورة متقدمة للحضارة الغربية في الشرق الأوسط، فإن التعريف الذي منح إلى البربري بوصفه «لا يدخل التاريخ بتأسيس مجتمع، ولكن بحرق وهدم حضارة» يكذب هذه الحقيقة.. لكل بربري تاريخ هو نفسه تاريخ حرقه لحضارة أخرى[2].. هذا يجعل إسرائيل مثالا للبربري الذي يحمل خرابا للأمم القائمة والثقافات الآمنة، فهو صنيعة التاريخ وليس الطبيعة. وجب أن لا نخدع بأن لإسرائيل امتدادا طبيعيا، بل هي كانت

(1) المصدر نفسه، ص165.
(2) انظر المصدر نفسه، ص197.

وستظل تاريخا ؛ ما يعني بتعبير آخر مشروع تدمير وحرق ولا إنسانية. ذلك حال البربري الذي لا يحسن إلا أن يكون متعجرفا ولا إنسانيا مهما بدت منه من الأفكار ما يدعو للانخداع بعدم السوء.. «البربري ينبثق من التاريخ»[1].. فمهما بدت إسرائيل للعالم أنها دولة الديمقراطية والسلام وما شابه، فهي دولة غير طبيعية تؤدي دور الدولة البربرية الباعثة على الرعب والمحو والتدمير.

(1) المصدر نفسه، ص198.

زمان المحتل و زمان المقاومة

إن الزمان المقاوم ليس زمان الدول والسياسات والمصالح.. إنه زمن كثيف الحضور، لأنه الزمان التاريخي والزمان الحضاري والزمان الاجتماعي الضروري لتحقيق حرية الجماعات الإنسانية. إنه زمان غالب بالضرورة لأنه زمان أقوى. لذلك فإن الزمان الصهيوني هو زمان فارغ، لأنه ليس زمانا تاريخيا ولا زمانا حضاريا، بل إن كثافته هي كثافة البارود منتهي المفعول والرعب المتخيل الذي يفرض على صاحبه الإبقاء على عدم سواء الصحة النفسية الجماعية للضحية، فإسرائيل ليست فقط أنها تصنع رعبا مزيفا تمنحه من فرقعات البارود ما يكسبه معنى واقعيا، بل هي مضطرة أن تفسد سيكولوجيا العالم والمعرفة والثقافة للإبقاء على أحجيتها المفرغة من الزمان. وحيث لا يوجد ما يسندها من الزمان التاريخي فإذن لا مستقبل لها. لأن المستقبل يتطلب فعلا في الزمان المكثف لا الزمان الفارغ. فإسرائيل تحرس أحجيتها بـ «الميزاجور» وفي كل مرة يتطلب وضعها لجوءا إلى «الفورماتاج». وهذا عنوان ضعفها وعدم رسوخها في التاريخ والجغرافيا معا.

إننا نتحدث هنا عن مفهوم خاص للزمن يرتقي به إلى جنس الفاعل في الزمن ويكتسي سنخيته حيث به يكتسب ماهيته في نهاية

المطاف. فماهية الزمان من ماهية الفاعل في الزمان. وقد بات واضحا انطلاقا من هيغل نفسه أن ليس كل فعل في الزمان هو تاريخي. الفعل التاريخي هو هنا محدد لفاعلية الإنسان. فليس كل ما يقع في المساحة الكرونولوجية هو فعل تاريخي. على هذا الأساس وجب تحرير مفهوم الزمن المقاوم باعتباره زمانا يكسب ماهيته من طبيعة الفاعل وغاياته.

وحيث بات واضحا أن العدو بما أنه وجد نفسه يفتقر إلى الزمانية المكثفة بفعل التاريخ والجغرافيا، لجأ إلى لعبة الخديعة التاريخية الكبرى: أن يحقق أهدافه ضمن مساحات كرونولوجية ضيقة ـ يسعى لتعويضها بالمساحة الجغرافية (بالمعنى الجيوـ سياسي الدولي) الواسعة هي مدى نشاطاته القذرة ـ. إن العدو يواجه حتمية الفقر الوجودي الذي هو انعكاس للفقر الزماني. فهو لا يملك استعمال الزمن المكثف ـ من حيث كون زمانه فارغ من المضمون التاريخي ـ كما لا يستطيع الفعل في المساحة الكرونولوجية الواسعة. إن الزمان التاريخي للشعوب فضلا عن أنه يكسب الحراك الثوري والمقاوم تضخما في المضمون الإنساني، فهو يتيح له الفعل الأول والأخير، أي الفعل في المدى الكرونولوجي الواسع. من هنا وبحساب اقتصاد تاريخ الحرب، فإن المساحة التي تتحرك فيها فاعلية المقاومة لا حدود لها في الزمان في حين هناك انحسار وضيق في المدى الكرونولوجي لفعالية العدو. ومن ثمة فإن العدو يسعى لاختصار الزمن الكرونولوجي لتحقيق أهدافه. بينما يبدو المدى أمام حركة الشعوب ممتدة ولا تحتاج إلى اختصار الزمن، لأنها هي من يمنح الزمن معنى. ولهذا تحديدا نجد أن خسارات الشعوب تظل مهملة مهما طال عليها الزمان، في حين أن خسائر

الزمن بالنسبة للعدو تكلفه كل شيء. وواضح أن انعكاسات خسارة الزمن بالنسبة للشعوب تستدرك في لحظات ثورية ما. بينما لا مجال لتدارك خسارة الزمان بالنسبة لعدو يدرك أن الفرصة الكرونولوجية المتاحة لبناء مشروعه غير محتملة التكرار بخلاف الفرص المتاحة لحركة الشعوب. لأنه فقط في مثال تجربة الشعوب تندك هيروقليطية عدم التكرار، لصالح حقيقة أننا نستطيع أن نستحم في النهر مرّات عديدة كما يمكن للتاريخ أن يعيد نفسه بصورة أكثر نضجا وكثافة. إن صراع المقاومة والمحتل هو صراع بين زمانين: أحدهما كرونولوجي أجوف عديم المدى، بينما الثاني هو تاريخي ومكثف وبعيد المدى. ومن هنا فإن اغتصابه للجغرافيا لم يمكنه من اغتصاب التاريخ. فوجب أن نقاومه من موقع عجزه الزماني لربح الجغرافيا. إن العدو لا يستطيع احتلال زمن الحروب أكثر من أيام. وحيث ملكت المقاومة الزمان كله وافتقر العدو إلى الحد الأدنى منه، وجب الاستناد إلى التاريخ في تحرير الأرض. وذلك حظ المقاومة وفلسفتها في جدل التاريخي والجغرافي. وتصعيد الوعي بهذا الجدل ضروري ومثمر وله انعكاسات على الممارسة والقدرة على الإنجاز.

حينما يحاكم الحاضر الماضي ويصبح نموذجاً للمستقبل

لقد أصبح بإمكاننا القول إن صلاح مستقبل الأمة ممكن بنموذجها الحاضر. كما أصبح ممكنا القول أن صلاح النموذج الحاضر يكشف عن فساد النموذج القديم. فإلى أي حد بات مفروضا أن نؤسس لفلسفة تاريخ المقاومة.. وإلى أي حد بات مفروضا أن نثق في إنجازات شبابنا الحي في محاكمة حيزبونات تاريخنا الهزائمي غير المأسوف على رحيله.. وإلى أي حد بات ضروريا أن نبني فلسفتنا كما نبني مستقبلنا في ضوء إنجاز ما، حتى إن رآه البعض مؤقتا عابرا فلنجعله دائما.. وحتى إن رآه البعض صغيرا فلنجعله كبيرا.. وحتى إن رآه البعض محصورا فلنجعله موسعا؟

هذا مع أننا لا نكاد نفقه لهذا المنطق حديثا: كيف يكون الانتصار على إسرائيل في زمن الهزيمة الكبرى انتصارا صغيرا؟! وحيث وجب أن نقرأ حروف الانتصار في شروط وعناصر المعادلة الصعبة في منطقة لا تعني فيها الحرب أكثر من جعل السياسة تنهزم وليس أن نقذف بالآخر في البحر. فإلى أي حد أصبح من واجب الأمة أن تكف عن استهتارها لتنسى كعادتها انتصاراتها كما لا

تنسى هزائمها؟! لقد قرأ بعضنا الهزيمة منذ النكسة حتى اليوم كأفضل ما يقرأ ويستوعب تلميذ جاد دروسه ويتفوق في الامتحان. غير أن هؤلاء لم يعرفوا كيف يقرؤوا أو لا أقل يتهجّوا حروف النصر. فكانوا أفشل من يستوعب دروسها. وقد بات واضحا أن أبطال الهزيمة اليوم يسعون لمنازلة أبطال الانتصار بسلاح الوقاحة. وقد بدا واضحا أن أفضل سلاح ضد سلاح الوقاحة هو التسامي بالفعل المقاوم وقيم المقاومة إلى شوامخ الجدل العقلائي الحسن.

الانتصار خيار والهزيمة خيار:
ذلك درس المقاومة

لا زال سؤال الزمان يطرح نفسه بإلحاح في دراسة التاريخ والحضارات والمستقبليات. بل ولا يزال سؤال الزمان هو السؤال الثقيل على عقلنا العربي والإسلامي نظرا للصلة الحيوية التي تربط بين قيمنا وتطلعاتنا التي تتحكم بها تخارجات الزمان الثلاثة: ماضي مجيد وحاضر ارتكاسي ومستقبل حالم. وحيث كلما تأملنا تاريخنا واستبصرنا مجده وعظمته رغم ما انتابه من ارتكاسات تاريخية مشهودة، كلما ازددنا رفضا لواقعنا الموسوم بالانحطاط والهزيمة والتخلف، كلما زاد تعلقنا بالمستقبل وإمكانية الخلاص. نحن إذن لا نتولد من ماضينا المجيد فحسب ولا من حاضرنا المأزوم فقط ولا حتى من مستقبلنا المنظور الحالم فقط، بل نحن كنا ولا زلنا نستولد هويتنا من جدل هذه التخارجات الزمنية بما يسمها من مجد مفقود وحاضر مأزوم ومستقبل منظور. لقد شكل ذلك الجدل سمة العقل الإسلامي لا سيما العربي خلال الفترة التي بدأت بنشوء دويلة إسرائيل في قلب العالم العربي ومرورا بكل النكسات والهزائم التي كادت تكون سمة الموقف العربي. إنها فترة الهزيمة والأحلام المحبطة التي أوشكت أن تقتل الأمل في نفوس

الأجيال الجديدة. كان لتراكم الهزيمة وقع خطير على العقل العربي تحديدا؛ خطر يستهدف روح الأمل والمقاومة والثورة ضد هذا البؤس والانحطاط، خطر لم يقف عند ذلك الحد، بل تعداه ليصبح عدوا ينازل ممكنات أحلامنا والمعنى النقي والجميل لروح الثورة على هزيمتنا التي تحولت من هزائم تاريخية في واقعنا الخارجي إلى هزيمة بنيوية، هزيمة عقل وروح ـ وهما أنكر أشكال الهزائم الممكنة، حيث لا خير يرجى بعد تحققهما لأمة ـ جعلوا منها قدر الوضع العربي، وكأن لسان حالهم: أيها العربي افعل ما شئت فأنت مهزوم. إن المعركة كانت أبعد من كونها حربا محصورة الوسائل محدودة الأهداف. إن الحرب التي خيضت ضد الكيان العربي والإسلامي كان يراد منها أن تنزل هزيمة حضارية وروحية بالأمة: الهزيمة التي لا مخرج منها إلا بالقبول والاستسلام للغرض الامبريالي الذي يبدأ من القبول بالقبول بخيارات الذل والتبعية نظرا وتنتهي بمشروع الشرق الوسط الجيد والكبير عملا، حيث ليس للعرب والمسلمين من رصيد في جملة الودائع الكبرى التي يتوفر عليها أعضاء النادي البيريزي ـ البوشي إلا الجسد من دون عقل ومن دون روح: وذلك بعد أن كان الهدف قاضيا باستبدال الروح العربية والإسلامية المحلية بعنوان دخيل وغريب: الشرق الأوسط الجديد بروح الأمركة السياسية والثقافية والتعويم الروحي لصالح مسخ روحي مركب وهجين قوامه خرم هوية متصالحة مع نفسها لصالح هويات متقاتلة قلقة، وكذلك بعد أن استقر خيار السياسة الشرق أوسطية على العقل اليهودي والعبقرية اليهودية ـ كما اقترح بيريز ـ ليكون هو العقل المدبر لشؤون وتنمية شرقنا الأوسط الجديد. وليس للعرب بعد ذلك إلا أن يشتغلوا بأيديهم كقطيع من

العبيد وليس لهم إن ظل معهم بقايا النفط، إلا أن يقدموا الراسميل لتمويل مشاريع تنمية الشرق الأوسط الجديد. ماذا لو استغنت التقنية عن اليد العاملة وماذا لو نضب النفط: ماذا بقي للعالم العربي سوى أن يصبح قطيعا مهددا بالانقراض. وهذا تحديدا ما يجعل إسرائيل أكثر خوفا وانزعاجا من التطور التقني والنووي ـ باعتبار امتلاك التقنية النووية مدخل رئيس لكل أشكال التقنية الأخرى وتطور العلوم ـ ليس فقط خوفا من الخطر النووي الذي لا أحد يملك استعماله في المنطقة ما دام مستعمله هو سيكون شريكا في حجم المآسي التي ستصيب المنطقة، ولكن لأن إسرائيل ظلت تكرس صورة الأمة العبقرية التي يجب أن تناضل لإقناع المنطقة بأنها وحدها تملك القدرة التقنية ووحدها تصلح عقلا طليعيا في المنطقة. إن المسألة تتعلق بحرب حضارية وروحية وثقافية ليست المعارك العسكرية التي رأيناها وقد نراها في المستقبل بشكل من الأشكال إلا واجهتها إن لم نقل إنها استمرار لتلك الحرب الحضارية والثقافية والروحية. فالاستعمار يرغب في «فرمطت» المنطقة ويخشى من سياسة «الميزاجور» الذي تحافظ الأمة عبره على مكتسباتها وتكرسها.

لقد تضخّم التاريخ طيلة فترة الهزيمة العربية على حساب الحصيلة المزرية للحاضر والتباس صورة المستقبل. وقد باتت قاعدة مشهودة في جدل التخارجات الزمنية الثلاثة، وهو أننا حيثما انهزمنا في الحاضر عدنا إلى مجد الماضي واختبأنا فيه وضخمناه وجعلناه حاكما على الحاضر والمستقبل، وكلما حققنا انجازات في الحاضر كلما تقلص حضور وتضخم الماضي في وجداننا وثقافتنا.

نستطيع القول أننا بفضل انتصار حرب تموز نكون قد دخلنا

مرحلة جديدة في الصراع مع إسرائيل بوصفها ـ فضلا عن أنها آخر أشكال الاستعمار المباشر اليوم وأشرسه على المحلي، ليس لأن الأمر يتعلق بإسرائيل القوية بترسانتها وتقنيتها في الإخضاع، بل لأن المفارقة تكمن اليوم في أنه شكل من الاحتلال يمارس بصورة يومية وقهر يومي على الشعب الفلسطيني يتكرس بالتصعيد العسكري للاحتلال وبالمساندة الدولية وصمت المنتظم الدولي ـ الممثل اليوم لروح الاستعمار وعنفه وخططه وغاياته. إن الانتصار على إسرائيل سيكون قضاء نموذجيا على كل محاولات الهيمنة على الشعوب وليس فقط على الشعب العربي والإسلامي. وقد يسعى الاستعمار الجديد وفلوله وأعوانه والمتاجرين في مناخاته من أبناء جلدتنا يسعون سعيهم ليهونوا من أثر الانتصار خوفا من أن يحصل عودة الروح والثقة الحضارية للكيان العربي والمسلم: إنهم لا يريدون الخروج من عصر الهزيمة، وهؤلاء قسمان:

قسم لم يصدق أنه بالإمكان أن يخرج رأسا من هزيمة غدت عنه حتمية كبرى: وهذا مشكل سيكولوجي بالدرجة الأولى يمكن أن ندخله في نزعة ثباتية منحرفة أوقفت العقل في ثقافة الشعور بالنكسة والهزيمة.

والثاني: قسم ارتبطت مصالحه بواقع الهزيمة وأصبح غير معني بيقظة الأمة وتبديل حالها وتقدمها. هؤلاء هم تجار الهزيمة.

اجتهدت المقاومة لكي تكذب أسطورة ّالجيش الذي لا يقهرّ، وهي من الأساطير التي وظفت في نزع ما تبقى من روح التحدي عند العرب وأيضا، نزع الاعتقاد والأمل باحتمالية الانتصار. وقد أثبتت المقاومة أنها تبوأت المقام الذي يسمح لها

بدخول التاريخ ؛ تاريخ المستقبل. ليس من حيث إنها لحظة انتصار فحسب ككل الانتصارات التي يجب أن نقيم لها احتفالا ثم ندرجها في أرشيف انتصاراتنا العادية، بل هو انتصار يجب أن يمنح حقه في التغيير والإصلاح التربوي، باعتباره انتصارا جعلنا أمام معادلة جديدة ؛ معادلة الحاضر كحاكم على الماضي ومتحكم بالمستقبل. بالانتصار إياه نستطيع إعادة تقييم مرحلة من الهزائم أصبح واضحا أنها هزائم لها أسبابها وعللها التي كشفت عنها المقاومة، وأيضا يجعلها متحكمة في أي صورة وجب أن تأخذها الأمة مستقبلا كعنوان على استرجاع المبادرة والإرادة. إن المقاومة جعلت الأمة أمام معادلة جديدة إذن. فبعد أن أصبحت الهزيمة قدر وحتمية، أصبح النصر خيارا وإرادة كما غدت الهزيمة خيارا وإرادة. وبعد أن ظلت قراءتنا لأسباب النكسة والهزيمة تزيد من تكريس هزيمة العقل والروح حتى باتت أسبابا تبرر هزيمة العرب ولا تحملهم المسؤولية في معميات التحليل والتباسات التبرير، قدمت المقاومة موقفا فاضحا يحمل الأمة سبب هزيمتها بدل أن يجعله معلقا على الآخر. إنها حكاية أخرى لمحكية استرجاع الإرادة في زمن كل ما فيه يدعونا إلى الكف عن سردية عالم الثورة وشعاراتها الرومانسية: زمن يدعو لأن تعيش لكن بشرط أن لا ترى ولا تسمع ولا تتكلم. أي أن تحيى كدواجن صامتة، أن لا ترى إلا ما يراد لها أن ترى، ولا تفتح فمها إلا لتنهل من مسموم كلئنا ولا تسمع إلا ما يراد لها أن تسمع.

بدء المعرفة،
إعرف عدوّك: في المسألة اليهودية

نقطة قوة العدو هي نقطة ضعفه. ولكي ننتصر على العدو علينا أن نصيغ معرفة مقاومة به. هذه المعرفة التي تكشف عن هشاشة كيان وأسطورة ردع لا يقاوم. لكي ندرك أن هزيمة العدو حتمية سياسية وعسكرية وتاريخية، ولكي ندرك أن انتصار المقاومة هو مثل ذلك حتمية سياسي وعسكرية وتاريخية، ما علينا إلّا الوقوف عند بعض الحقائق التي تكشف عن أن إسرائيل مشروع ولد ميتا كلما تقدم به الزمان تعرت حقائقه وازداد توجّسه من مستقبل مجهول.

تاريخ مزيف وزمان فارغ

التاريخ الزائف هو الذي يستند إلى الزمان الفارغ. فمنذ الشّتات حتى العصر الحديث، لم تتفجر المسألة اليهودية بالصورة التي ستشهدها أوربا بعد الحرب العالمية الثانية. وليس الوجود بشرط هذه الزمنية الكرونولوجية الفارغة يعتبر وجودا تاريخيا. ليس كل حدث وجد في التاريخ هو حدث تاريخي. ومع ذلك وجب أن لا نتحدث عن تاريخ مشترك ومنسجم لليهود، بقدر ما يجب أن نتحدث عن تواريخ وتجارب مختلفة بحسب المجالات التي استوطنها اليهود عبر هذا الزمن المديد من الشتات. فالجماعات اليهودية داخل الغيتوهات الأوربية انخرطت بشكل ما في صيرورة التطور الاجتماعي الأوربي. التطور الكبير في أوربا ساهم في تفكيك الأواصر التقليدية ليهود أوربا. الحل هو في الانتكاس إلى أوضاع أكثر تقليدية وأكثر تسامحا إزاء الدور التقليدي للمنتج اليهودي. حسب المسيري، كان اليهود يحلون مشكلتهم بالعودة إلى الماضي عن طريق الهجرة إلى شرق أوربا أو الولوج إلى المستقبل عن طريق الإنتاج[1]. إن إسرائيل

(1) عبد الوهاب المسيري: الأيديولوجية الصهيونية؛ دراسة حالة في علم اجتماع المعرفة، ص45، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والأدب، عدد 60 الكويت 1992م.

بإصرارها على النشاز تظل مهاجرة وغيتوها في صورة دولة. أي أنها تتشبت بالعودة إلى الماضي. إسرائيل إذن لا يمكنها أن تحل مشكلتها إلّا بالاندماج. لكن يبدو اليوم وغدا أن المنطقة ترفض بطبيعتها هذا النشاز عبر مكافحة التطبيع بشتى الوسائل والطرق. فشل إسرائيل في التطبيع مع العرب راجع إلى هذا النشاز وليس فقط راجع إلى الممانعة السياسية. الحل إذن يتجه نحو حتمية تفكيك الدولة وإعادة توزيع وانتشار المجموعات اليهودية واندماجها في تاريخها الخاص والانخراط في زمانية ممتلئة غير فارغة، وفي أحسن الأحوال تعلن انهيار الحكم الصهيوني العنصري لصالح دولة فلسطينية يتعايش فيها الجميع في ظل حكومة ديمقراطية تحتكم إلى صناديق الاقتراع مع حلّ مشكلة المستوطنات واللّاجئين. إن اليهود يمكنهم أن يعيشوا في سلام متى لم يرتهنوا لدولة محتلة عنصرية تسعى لفرض تاريخها الفارغ على تاريخ ممتلئ. وهذا ما يجعل التطبيع مستحيلا. ثمة حقيقة أخرى وهي أن هناك شعبا تم استنباته في تربة أخرى، وتمت معالجته بالأسمدة المصنعة. فهو نبتة غريبة لا تتوفر على خصائص النبتة الأصيلة المحلية. لا يحتاج النبات البري إلى كثير عناية. بينما من شأن النبات الغريب أن يذبل ويتلاشى بمجرد أن تتوقف العناية به وغياب السماد المصنع. وحتى لو دام قليلا، وظهر أنه شامخ أكثر من النبات الأصيل، فلن يكون مثل الأصيل في المذاق. ومن هنا فالمقاومة تنطلق من صميم هذه الحقيقة. أي من أن الطبيعة قادرة على تحقيق التوازن بينها وبين جيش نظامي محتل. لأن الوقت الذي يحتاج فيه إلى مزيد من السماد واللوجيستيك تستطيع المقاومة أن تصمد رغم الصعوبات وفي كل التقلبات المناخية العارضة وتستطيع التكيف بسرعة لا

تضاهى. إن إسرائيل نفسها تحاول أن تقاوم الطبيعة. وهنا يكمن الفارق. فإسرائيل تقاوم الطبيعة فيما المقاومة تقاوم اللّاطبيعة. تقاوم إسرائيل في شروط غير أصيلة، فهي في حاجة إلى سماد مستمر ولوجيستيك مفتوح مثل بوفيه مفتوح. وهذا ما لا تستطيع ضمانه إلى الأبد. يتحدث المسيري عن جملة التعثّرات والعوائق التي اعترضت اليهود في أوربا للاندماج في النظام الحديث. وضرب أمثلة على ذلك التّأخر الكبير الذي عانوا منه في أوربا. وربما كان من أسباب فشلهم في الاندماج القول بالهجرة حسب الداعية الصهيوني الروسي موشيه ليلينبلوم (1843 ـ 1910): «البعث إسرائيل في أرض أجدادهم حيث يستطيعو الأجيال القليلة القادمة أن تحيا حياة قومية عادية»[1].

غير أن المسيري يتحدث أيضا عن نجاح مذهل لليهود على صعيد الاندماج إذا ما قيس وضعهم بتحرير الزنوج في أمريكا الشمالية. لكن المسألة تكمن في أن الصهاينة في مخططهم لم يتقبلوا هذا النجاح التاريخي النسبي[2]. لقد اعترف وايزمان في عام 1927م بأن وعد بلفور «كان مبنيا على الهواء». وقد حاول وايزمان أن يحلّ المسألة من الأعلى أي من ناحية المصالح الإمبريالية وليس من الأسفل من ناحية الجماهير اليهودية. باعتبار أنه حتى ذلك الوقت كانت الصهيونية مجرد فكرة ليس لها جمهور[3]. سعى بعد ذلك هيرتزل لإقناع البريطانيين واللورد روتشايلد بفوائد وطن

(1) المصدر السابق، ص73.
(2) المصدر السابق، ص73.
(3) المصدر السابق، ص111.

يهودي بالنسبة للبريطانيين. كان لا بد أن يقتنع البريطانيون بأن المسألة تتعلق بمصالح البريطانيين. وهي المحاولة نفسها التي قام بها هرتزل لإقناع السلطان عبد الحميد، حيث أبرز له ما يمكن أن تجنيه الدولة العثمانية من مصالح وفوائد من ذلك. أين مخرج المسألة اليهودية في كل هذا؟! لكن لا ننسى أن هرتزل نفسه وصف الصهيونية بأنها «فكرة استعمارية»[1]. يتماهى هذا الموقف مع ما ذهب إليه بلفور صاحب الوعد الشهير في تعريف الاستعمار بكونه تعبير «عن حقوق وامتيازات الأجناس الأوربية». وذلك من منطلق عدم الاعتراف بالتسوية بين الأجناس، من حيث إن عدم التسوية ـ في اعتقاده ـ حقيقة تاريخية واضحة. هكذا سيلجأ بناة الفكرة الصهيونية وقادتها إلى تضخيم فكرة معاداة السامية بوصفها مجلبة لكل الدعم ووسيلة لتمرير كل المخططات الأكثر بطلانا في تاريخ النوع. فمعاداة السامية هي الوسيلة الأكثر نجاعة في الحركة الصهيونية. وقد اعتبر هرتزل أن الأولى تنمو بالثانية. بمعنى هويته اليهودية إزاء المعاداة للسامية[2].

كانت الغاية إذن أن تصبح المجموعات اليهودية المهاجرة إلى فلسطين خادمة للمصالح الإمبريالية في المنطقة. أي التخلص من اليهود في أوربا عبر الترنسفير الناعم، وأيضا ضمان خدمة مصالح الاستعمار. وإذن ما الذي تغير عن منطق الأشياء. إن مقاومة إسرائيل هو استمرار طبيعي لنضال طويل ضد الاستعمار وبقايا آثاره ومصالحه وهو ما يمنح المقاومة شرعيتها الخالدة. أي وجب الكفّ

(1) المصدر السابق، ص121.

(2) المصدر نفسه، ص215.

عن البرهنة على شرعية المقاومة كما لو كانت أمرا نشازا أو غير شرعي فقط لأن العدو كرس غلبته وأرعب المجال بالقوة لا بالشرعية .

هناك الكثير مما كتب ويكتب حول تاريخ اليهود وإسرائيل والمسألة اليهودية في أوربا. في العالم العربي تتحفنا موسوعة الراحل المرحوم المسيري بمستوى دقيق من التفصيل، فيه من الإحاطة ما يقرب المسألة إلى القارئ العربي. وشخصيا أعتبر أن جهد المسيري فضلا عن أنه ينتمي بامتياز إلى المعرفة المقاومة، هو محاولة تجميعية وتقريبية، لأنه لم يقدم رؤية جديدة لم توجد من قبل ولا فهما جديدا لم يذكر سابقا. لا يوجد في هذا أدنى عيب. بل تلك نقطة قوة في جهد المسيري لأنه لم يقدم رؤية عربية خالصة تدين تاريخ الحركة الصهيونية من منظور خاص تتحكم به ظرفية الصراع التاريخي بين العرب وإسرائيل. بل إنه جهد إنساني يرتكز على الصورة التي تكونت حول هذا التاريخ الإشكالي انطلاقا من آراء أوربية وأخرى يهودية لا تستثني آراء منصفين من داخل الكيان الصهيوني نفسه. هذه الأعمال تقدم صورة تصلح أن تحقق حدا أدنى من المعرفة بالعدو وتاريخه وسيكولوجيته وثقافته. لأن معرفة العدو هي مقدمة الواجب في اختراق أساطيره و التحصن من إيحاءاته. وانطلاقا من ذلك يمكننا ليس فقط أن نواجه التزييف الذي يراد له أن يكون هو الحل الناجع والوحيد للمسألة اليهودية، بل وجب الوصول إلى نقطة حاسمة تجعلنا نوضح لليهود في العالم وحتى داخل إسرائيل بأنهم وقعوا في فخ مصير مجهول اقتادتهم إليه الحركة الصهيونية. هناك حيث فرضت عليهم حلا خاطئا للمسألة اليهودية

ضمن أكثر من حلول ومقترحات كان بإمكانها أن تحل المسألة اليهودية ليس على حساب الفلسطينيين بالضرورة. الحديث إذن هو عن حلول أخرى ممكنة. وعلى المقاومة أن تجتهد أيضا في رسم خطوط هذه الحلول الممكنة لكيان بات يواجه انسدادات في صميم مشروعيته التاريخية. تحاول إسرائيل أن تقنع اليهود في الخارج والداخل بأن مصيرهم ومخرج مسألتهم يتوقف على عدوان دائم لإسرائيل لا ندرك مداه. وبأن العرب والفلسطينيين تحديدا، هم عائق تاريخي لتقرير هذا المصير. أي إن نجاح أو فشل المشروع الاستيطاني الصهيوني هو بمثابة «نكون أو لا نكون» بالنسبة للمسألة اليهودية. وهذا موقف مغالط كان لا بد من أن يكون التصدي له جزءا من برنامج مقاومة معرفية تحلل المسألة تحليلا مختلفا كما تطرح إمكانات أخرى لحل المسألة اليهودية وإخراجها من الاحتكار الصهيوني. أريد القول: أن المعرفة المقاومة لا حدود لها أيضا. إنني أقترح أن يصبح حل المسألة اليهودية جزءا من برنامج عربي وإسلامي، وجزء من برنامج المقاومة، من شأنه أن يكسر احتكار الحركة الصهيونية لها ويخرجها من سطوة الخواف العربي والإسلاموفوبيا، ويحقق اختراقات في صميم الأيديولوجيا الصهيونية، كما أنه يضيف إلى رصيد المقاومة جانبا من العقلانية والإنسانية والتكاملية. ليجعل معركتنا مع إسرائيل معركة صميمية وكبرى وايجابية تطفر بمعادلة الصراع إلى مستويات من الاختراق المعرفي. فهي معركة في النظر وفي العمل. مواجهة على الأرض ومناقضة في الفكر.

إن محاصرة المشروعية الصهيونية يجب أن تنطلق من منشأ الحلّ الذي فرض على ما سمي بالمسألة اليهودية. والمعرفة

المقاومة تجد نفسها مضطرة إلى اختراق هذه المسألة وتفكيكها قدر الوسع. ولا يملك الغرب نفسه أن يعيد طرح هذا السؤال بالكيفية الثورية المطلوبة ـ وهو ما يفسر استسلام الغرب لكل الحكاية الصهيونية ـ لأنه متورط في صياغة هذا الحل على أساس أنه الحلّ الوحيد. غير أن واقع المقاومة من شأنه أن ينمّي هذه الأسئلة ويدفع بها إلى مستوى أكثر جديّة ومطلوبية من كل الفترات التي نجحت فيها الحركة الصهيونية في طمس هذا السؤال المشروع على المسألة اليهودية. وبما أننا طرف أساسي في مواجهة المشروع الصهيوني، أصبح واجبا أن نتدخّل في هذا النقاش الذي لم يعد أوروبياً فحسب، بل إن من حقّ العرب والمسلمين وأحرار العالم أن يفتحوا سيرة هذه المسألة ويخضعوا تاريخها لقراءة نقدية جديدة.

إن أهم ما طرح في سياق المسألة اليهودية التي لقيت اهتماما كبيرا خلال القرن التاسع عشر تحديدا من خلال مداخلات كبار النظّار الغربيين وتحديدا اليهود منهم ـ ماركس في المسألة اليهودية مثالا ـ يبدأ بعلاقة اليهود بالدولة والثروة. فالحل الذي يقترحه المنخرطون في خطاب المسألة اليهودية، يبدأ من تصوير الموضوع بالصورة التي تجعل اليهودي متى فكّر بيهوديته لا يفكر كمواطن، بقدر ما يفكر كأناني. يتساءل ماركس في المسألة اليهودية مثلا: «إن اليهود الألمان يطالبون بالتحرر. أي تحرر ينشدون؟ هل التحرر المدني أو السياسي؟ برونو بوير يجيبهم: في ألمانيا لا يوجد أي أحد متحرر سياسيا. نحن أيضا لسنا متحررين. كيف تريدون منّا تحريركم. أنتم أيها اليهود أنانيون، لأنكم تطلبون لأنفسكم تحررا خاصا بوصفكم يهود.

وجب عليكم السعي بوصفكم ألمان للتحرر السياسي الألماني والتحرر الإنساني انطلاقا من إنسانيتكم[1].

تكمن المعضلة، في نظر هؤلاء النظار، في الدولة المسيحية. فاليهودي - حسب وجهة النظر تلك - لا يمكن أن يتحرر انطلاقا من ماهيته اليهودية، تماما كما أن الدولة المسيحية حسب باور غير قادرة انطلاقا من ماهيتها على تحرير اليهودي. فما دامت الدولة قائمة واليهودي يهودي، فلا يستطيع أحدهما منح التحرر والخلاص للآخر[2]. إنها إذن معضلة الدولة ومعضلة اليهود ومعضلة الحلول الفاشلة التي طرحت في سياق الجدل حول المسألة اليهودية. وقد يبدو أن الدولة هنا باتت عاجزة عن تحرير اليهود. كما بات اليهود عاجزون عن تخليص وتحرير الدولة. فمن يحرر من؟

طرحت قضية عجز اليهودي عن الاندماج بما يجعله فاعلا إنسانيا في دولة يكتسب فيها المرء قيمته من حيث هو إنسان لا من حيث هو يهودي أو كاثوليكي أو بروتستانتي... وبتعبير أندري كلوكسمان، فإن هيغل لم يستثن اليهودي من أن يصبح حديثا، أي أن يقتل اليهودي نفسه[3]. ويبدو أن إحدى مميزات السيكولوجية اليهودية حسب هذه المقاربة محكومة بآثار فشل اليهود منذ إبراهيم في تأسيس دولة مما جعلهم حاقدين على الأوطان. فبقدر سعيهم لتأسيس الدولة، بقدر ما يهزون من صرح الدول والأوطان. يفتتون الأوطان

(1) Karl Marx (1843), La question juive.p 9/ Introduction par Robert MANDROU Paris: Union générale d'Éditions, 1968, 186 pages. Collection: Le monde en 10-18, no 412

(2) المصدر السابق..

(3) andre glucksmann: les maitres penseurs; p: 100edition grasset = fasquelle, 1977; paris.

بقدر سعيهم لبناء وطنهم. لكن ما يهمنا هنا من المسألة اليهودية هو الجانب المتعلق بالنقد والملكية الخاصة والإنتاج. . . لقد تصرف اليهود دائما كأقلية تسعى إلى حماية نفسها من الاضطهاد الذي وضعتهم فيه أفكارهم العنصرية التوراتية النزّاعة إلى التميز العرقي قبل الديني. وحدهم اليهود يعتبرون ذلك أمرا طبيعيا يجب أن لا يتم النقاش حوله. يحتاج اليهودي إلى أن يخرج من يهوديته أو يعاقر علمانيته لكي يتحرر من هذا الإحساس التوراتي بأنه شعب الله المختار فيما الغوييم أنعاما خلقت لغاية خدمة الشعب المختار. لقد وجدت في مثل هذا التاريخ أقليات كثيرة كانت أكثر اهتماما بالكدح والعمل من اليهود. لكن يظل هناك جانب الدولة المفقود في الطوبى اليهودية التي أعادت لها الصهيونية هذا الحلم فقط حينما عجزت كل الحلول المتاحة يومها أن تتقدم بالمسألة اليهودية. التهميش لمسألة الدولة نجده حاضرا بقوة عند ماركس. ما يجعلنا نتقبل ذلك التعريف الذي يبدو هيغليا بامتياز: اليهودي بوصفه حيوانا بلا وطن. مع ماركس وهو يعالج فكرة برونو باور في المسألة اليهودية، سيصار إلى نوع من التحول حسب كلوكسمان من نقد المسألة اليهودية إلى نقد الاقتصاد السياسي: فالمال بوصفه القوة العالمية سيعلن عن نفسه بمثابة الرأسمال الذي عنون به ماركس لكتابه المعروف. المسألة اليهودية غدت بالتالي موصولة في نظر المحلل الغربي نفسه بقضية المال والثروة والصرافة. يتساءل البعض عن سرّ هذا التماثل بين مسألة الرأسمال والمسألة اليهودية. هذا إن لم يكمن الأمر في كونهما يشملان قضية واحدة: مسألة الدولة. بل يتساءل البعض إن كان محض مصادفة أن يغيب فصل الدولة من كتاب «الرأسمال». ثمة بالفعل أمر أشبه بالهروب من الدولة. لقد زحزح ماركس كراهية

اليهودي إلى كراهية النقد. وجاء النازي فزحزح هذا التزحزح نفسه. «ماكنة إلى الأمام وماكنة في الخلف، سكة الكراهية، والدولة الحديثة تضخ البخار»[1].

يسعى ليون ككل الذين اهتموا بالمسألة اليهودية أن يقرّوا بطرق حلها عبر فهم دقيق لتاريخ اليهود في أوربا. فمنذ 2000 سنة كان وضع حل للمسألة اليهودية ضرورة. غير أنه طيلة هذه القرون المديدة لم يوجد حل حقيقي لها، ما يبرهن على عدم ضرورتها. ظلت اليهودية من ناحية أخرى عاملا ضروريا للمجتمع الفيودالي ما قبل الرأسمالي. لا أستبعد أن تكون هذه هي الرؤية المركزية التي سوف توحي لماكس ويبر بسؤاله الكلاسيكي: لماذا أمكن الرأسمالية أن تنجح فقط في أوربا. إن أوربا التي استفادت كثيرا من الدور اليهودي في تحقيق نقلتها الرأسمالية سرعان ما ستتنكر لهذا الدور التاريخي وتضيق به إلى حد احتدام الصراع. وهنا لم يكن المقدس ليحضر بكثافته إلا بعد أن التقط هرتزل الإشارة وهو اليهودي الجاهل بالعبرية على التمام وغير المتدين أصلا، لركوب موجة الرمزي والديني في تحقيق حلم إسرائيل في وطن يمتح من الجذر الديني. لأن المقترح لعله الأقرب يومها للتحقق هو دولة يهودية في أوغاندا وليس في إسرائيل.

عاش اليهودي إذن سيدا في المجتمع ما قبل الفيودالي. سيدا بالمعنى التجاري للعبارة أي الممسك بالعصب الاقتصادي. وفي الوقت نفسه هو الكائن الأجنبي دائما وكائن الـ «دياسبورا». الثورة الرأسمالية حسب ليون لا يمكن أن تنطلق من داخل المجتمع

---

(1) المصدر السابق، ص 109.

الفيودالي، لأن هذا الأخير لا يمكن أن ينتج غير الفيودالية. الحاجة إلى عامل خارجي هنا لتأمين الطريق إلى الرأسمالية يأتي خارج الفيودالية بوصفها بنية تجدد نفسها. وهنا لعب العنصر اليهودي دوره بامتياز. ليس ثمة ما ينفع اليهودي وهو يعيش في قلب شرق أوسط بدولة يفترض أن تؤمن له الاستقرار والأمن والسلام وهو يعيش حالة الغيتو حينما فرضت عليه سياسات إسرائيل العزلة عن طريق بناء الجدار العازل. على الأقل وبعد الطفرة الرأسمالية أمكن اليهودي هدم الأسوار والتحرر من الغيتو وثقافته واستحقاقاته لكي يوجد في كل مكان وفي كل دولة. إسرائيل أعادت المسألة اليهودية إلى المربع الأول للأزمة وفرض غيتوهات جديدة على الشخصية اليهودية. إن اليهودي المتحرر من أسطورة الدولة الإسرائيلية النموذجية لليهود يشعر بأنه أكثر قدرة على الإنتاج والفعل عبر العالم من الإسرائيلي الذي فرض عليه قدر الغيتو الجديد في زمن هدم الأسوار بين الحضارات والثقافات. إسرائيل ابتعدت من استحقاقات العولمة أكثر من أي مجتمع آخر. إسرائيل لم تحقق استقرارا ولا أملا ولا فاعلية للطاقة اليهودية التي لعبت أدوارا في دولة المال لا في دولة السياسة. لا زالت كبرى الكفاءات واللوبيات التي تؤمّن الدعم اللوجيستي لإسرائيل توجد بأوربا و بالولايات المتحدة الأمريكية وليس في إسرائيل.

إذن، عاش اليهودي أجنبيا في مجتمع الفيودال، وهو أمر ليس حسب ليون محض مصادفة. فالرأسمال الخاص بالمجتمع ما قبل الرأسمالي يعيش خارج نظامه الاقتصادي. وحيث ما حدث هذا التطور وخروج الرأسمال من النظام الاقتصادي الفيودالي حتى بتنا أمام وضع جديد: انمحاء اليهودي ومكانته تلك بالموازاة مع انهيار

النظام الفيودالي. ففي نظر ليون، الرأسمالية الحديثة هي من طرح المسألة اليهودية من جديد. الرأسمالية إذن قوّضت القواعد الدنياوية للوجود اليهودي لمجرد أن قضت على المجتمع الفيودالي[1]. ويفيدنا هذا التحليل بأن المسألة اليهودية هي أبعد من أن تكون مسألة دينية. وبأن الحل لن يكون بالضرورة وطنا بديلا في فلسطين، لأن ما جعل منها مسألة في أوربا سيجعل منها أيضا مسألة من مستوى آخر من التعقيد في فلسطين. الحل الذي قدم للمسألة اليهودية بإنشاء وطن جديد في فلسطين لم يكن حلّا حقيقيا وواقعيا ونهائيا. لقد دخلت اليهودية في محنة جديدة، لكنها هذه المرة بتواطؤ مع الحركة الصهيونية التي ورطت اليهود في مخرج وهمي سهّل عملية الترانسفير الناعم للمجموعات اليهودية في أوربا خارج المجتمع الرأسمالي الأوربي الحديث. فما دام لا مخرج إلا بإعادة وضع اليهود في غيتوهات داخل أوربا، فليكن ذلك بإنشاء غيتو كبير لسجن اليهود والمسألة اليهودية في منطقة أريد لها أن تظل فوق لهيب حروب لا نهائية. لأن ذلك من ناحية أخرى يضمن المصالح الكبرى للدول راعية الكيان الصهيوني. لا يملك اليهود أن يشكلوا عرقا نقيا صافيا، لأنهم أعراق مختلفة. وبالتالي هم وقائع سوسيو-تاريخية متنوعة. وهذا يترتب عليه آثار في الدويلة الناشئة، حيث إن إسرائيل ستجد نفسها أمام حتمية التطور الطبيعي للمجتمع وتشكل ظواهر جديدة سينتقل بموجبها المجتمع من حال البساطة إلى حال التعقيد. أي بتعبير آخر سنجدنا أمام تحولات اجتماعية تجعل

(1) Abraham Léon: LA CONCEPTION MATÉRIALISTE DE LAQUESTION JUIVE, p 211Décembre 1942 Édition du groupe.

إسرائيل أمام شعب استهلاكي على غرار المجتمع الرأسمالي، تنخره المصالح الفئوية والتطلعات الطبقية. فهو ليس مجتمعا زراعيا أو شغيلة منحدرا من فقراء اليهود المهاجرين من أوربا الشرقية أو هوامش المجتمعات المتقدمة أو اليهود الشرقيين. فثمة مسألة تطرح هنا بإلحاح: كيف ستستمر أكذوبة اليهودي الذي يجب أن يضحي من أجل دولته الدينية، والجيل الجديد يدرك أنها دولة علمانية تتناقض مصالحها الطبقية. فاليهودي لم يضحي من أجل الدولة حتى لمّا كان دينيا يقاتل تحت إمرة الأنبياء، فكيف سيحارب من أجل مصالح فئوية ضيقة. وهو يملك على كل حال أن يحقق تلك المصالح في أصل المجتمع الغربي وهذا ما يفسر ارتفاع حجم الهجرة العكسية من إسرائيل إلى أوربا. علينا على كل حال أن نقف بجدية على أن قسما كبيرا من اليهود قد خدعوا. وهم يسجنون اليوم في غيتو كبير وفي عزلة كئيبة وسجن ناعم. فالاستغلال الديني في دعم مشروع الدويلة الصهيونية آيل إلى زوال. من هنا تحتم أن لا يوجد جيش نظامي يحترف العسكرة في مجال يغلب عليه الطابع المدني. فإسرائيل لا يمكنها أن تحارب إلا بفقرائها الذين لن يضحوا من أجل دولة فيما هم يملكون البحث عن مصالحهم خارج حدود دولة مجهولة المصير. وحيث إن إسرائيل لن تحارب بأبناء البرجوازيين، كان لا بد أن تتحول العسكرة واجبا بالسوية يتقاسمه أبناء إسرائيل: إسرائيل هنا فرض عليها أن تكون دولة عسكرية بامتياز.

وحسب ليون أيضا، فإن النظام الرأسمالي قد طرح المسألة اليهودية نظرا لتدميره لأركان السوسيولوجيا التي أمنت وجود اليهودية خلال قرون. فالرأسمالية لم تحلّ المسألة اليهودية لأنها

عجزت عن احتواء اليهودي المتحرر من مجتمعه الفيودالي. يمكننا إذن حسب ليون الحديث عن انحطاط الرأسمالية الذي علّق اليهود بين السماء والأرض. لقد ذهب التاجر اليهودي ما قبل الرأسمالية، غير أن ابنه لم يجد له مكانة في الإنتاج الحديث[1]. اليهودية بالتالي أصبحت عنصرا من دون طبقة. ومن هنا فإن الرأسمالية لم تقض على الوظيفة الاجتماعية لليهود فحسب، بل قضت أيضا على اليهود أنفسهم. على هذا الأساس تعارض وجهة نظر ليون المقترح الذي جاءت به فئة الأيديولوجيين الذين ينتمون إلى البورجوازية الصغيرة، القاضي بأن جوهر المشكل يتعلق بمشكلة الشتات؛ فإذن الحلّ في وجود اليهود في أرض فلسطين سيكون بمثابة الحلّ الوحيد. وهذا في نظر ليون ضرب من المعالجة الصبيانية، حينما نختزل المسألة اليهودية في مسألة أرض. إن المسألة اليهودية لن تصبح إذن مسألة وجود وطن إلّا في حالة ما إذا تعلق الأمر باختفاء اليهودية التقليدية، أو دخول اليهود في الاقتصاد الحديث. فالصهيونية سلكت طريقا معوجّا للعودة إلى الحلول نفسها التي أقرها أعداء اليهود .

من خلال هذا المنظور الذي صاغه مفكر يهودي شاهد على تداعيات المسألة اليهودية، يكون وعد بلفور هو رصاصة الرحمة التي أطلقت على جسد المسألة اليهودية. هذا المنفى القسري الذي ساهمت فيه الصهيونية واستغلت فيه المجموعات اليهودية من هوامش المجتمع الغربي، كشغيلة وزراعيين في الأعم الأغلب، كانت أيضا إيذانا بإشعال حرب حضارية كبرى بين الغرب والعرب.

(1) المصدر نفسه، ص212.

لم يشأ الاحتلال البريطاني أن يسلم المنطقة من دون ثمن أو تعليق للمنطقة في أزمة سوف تنعكس آثارها السياسية والاقتصادية والثقافية والبيئية على المحلّي العربي. لقد أرادوا للعرب أن يحلّوا مسألة لم توجد إلّا في أوربا. هكذا انعقدت صفقة تاريخية بين قادة الصهيونية وقيادات الاستعمار البريطاني، سيكون ضحيتها المجموعات اليهودية المهجّرة من كل حدب وصوب، باعتبارها ستقيم في أرض الميعاد، قبل أن تفيق على واقع مصير مجهول يتهدد كيانا بات يضيق يوما بعد يوم على أصحابه، ما يجعل المقاومة في صمودها وتحديها تعيد المسألة اليهودية إلى مربعها الأول. فتكون المقاومة ليس فقط أنها تمانع ضد المحتل، بل تصبح المقاومة ضرورة تنكشف معها خطيئة الحلّ الصهيوني للمسألة اليهودية. إن المقاومة تخدم المسألة اليهودية بطريقتها حينما تحرر اليهودية كدين وكعرق من جدول أعمال السياسة الصهيونية الفاشلة تاريخيا. وهذا ما يفرض على المعرفة المقاومة أن تخترق العقل اليهودي وتساهم في مقاومة التنميط والهيمنة الصهيونية على يهود العالم بتكثيف الحقائق وإعادة طرح السؤال على المخرج التاريخي للمسألة اليهودية كما فرضه قادة الصهيونية الأوائل، مخرجا وحيدا انكسر بعده القلم.

يتطلب الأمر شيئا من الإنصات لبعض الاعترافات التي تنطلق بحسرة وعفوية في أغلب الأحيان ممن تمردوا على الصمت اليهودي داخل إسرائيل نفسها. لا بد أن نتفهم سبب هذا الصمت الذي يكون أحيانا تكرّما يهوديا دفاعا عن الكيان الصهيوني حتى لا تتحول تلك الاعترافات إلى ظاهرة تقضّ مضجع إسرائيل وتشكك في مدى إمكانيتها على الصمود في وجه المصير. لكن لنقل إن تلك التصريحات التي تنطلق من المجتمع الإسرائيلي هي عنوان لحالة

تسعى إسرائيل لإخفائها لأنها تمثل حالة الوجدان اليهودي داخل إسرائيل.

إذا أردنا الوقوف عند معنى القوة والانتصار، فإن مجزرة كبيرة تقيمها إسرائيل على شرف العرب في فلسطين أو لبنان، لن تطرح على الشعب العربي هناك أن يخترق عقله اضطرابا سيكوباتولوجيا حول المصير. يكفي العربي أن يكون فوق ترابه ليكتسب الطمأنينة كاملة بالمستقبل. بينما كل الرؤوس النووية التي يحتفظ بها الكيان الصهيوني، لا تستطيع أن تزرع الأمان في المستقبل والثقة في إسرائيل لدى مواطنيها. وهذا هو الفارق الموضوعي بين النصر والهزيمة في معركة مفتوحة على كل الخيارات، حتما تكون إسرائيل فيها هي الخاسر حتى لو ربحت أكثر من معركة.

هذه الحقيقة يعبر عنها يوسي ميلمان خير تعبير في شهادته على واقع التحولات العميقة التي يشهدها المجتمع الإسرائيلي منذ نشأته حتى حرب الخليج الثانية. إذ يقول «وبعد أن سحبو البساط من تحت أقدامنا لم أعد قادرا أن أمنع نفسي ألّا تصارع ذاتها في معنى اليهودية. لقد كنت أرى نفسي ملحدا كسائر 80% من الإسرائيليين. وقلما حضرت اجتماعات اليهود للعبادة»[1].

يتساءل يوسي ميلمان عن ماهيته وماهية الدولة التي ينتسب إليها: «إن دولة إسرائيل ما برحت تعرف نفسها في إطار دولة اليهود، ولكن ما معنى هذا الأمر؟ أنحن إسرائيليون أم يهود؟ وهل

(1) يوسي ميلمان: الإسرائيليون الجدد، ص 10، تـ: فاضل مالك البديري، الأهلية للنشر، الأردن 1993م

تعبر يهوديتنا عن نفسها في إطار المصطلح القومي أم في إطار آخر ربما هو الإطار الديني؟ ثم ماذا عن مصطلح شعب الله ومصطلح دولة اليهود؟ فهل يستثني كلاهما العرب الذين يقطنون دولة إسرائيل؟ وأخيرا أيهما منبع حضارتنا؟ أهو الأوربي أم الشرق أوسطي»[1].

إن بعض الإسرائيليين الذين فضلوا قول الحقيقة من أمثال يوسي ميلمان أوضحوا بما فيه الكفاية أن التاريخ الذي سعت القيادات الأولى للحركة الصهيونية في سبيل بنائه سينقلب حتما على الجيل الإسرائيلي الجديد. فلا شك أن ثمة تحولات تفرضها حتمية الصيرورة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والديمغرافية للبلد حديث النشأة. من أمة مزارعة فقيرة متجانسة تعيش على سبيل الرعاية الاجتماعية إلى طفرة اجتماعية ستبدأ معها بوادر نشوء طبقة وسطى إسرائيلية إلى مرحلة جديدة أكثر ليبرالية وأكثر تحريرا للأسواق. ليست إسرائيل إذن استثناء من هذه التحولات التي ستكون حتما عاملا حاسما في التعجيل باضمحلال إسرائيل والكشف عن عوامل ضعفها الكبرى. إن إسرائيل لن تستطيع تأبيد الدعم الأمريكي لها حتى في اللحظات الحرجة التي تتهدد فيه أمريكا نفسها الأزمات المالية والماكرواقتصادية كما نشهد اليوم نموذجا للأزمة المالية العالمية وإفلاس البورصات. كل العوامل الطبيعية وغير الطبيعية تجعل الكيان الصهيوني في وضعية حرجة.

نحن إذن أمام تحولات حقيقية. المجتمع الصهيوني لم يعد متجانسا لا من حيث الثقافة ولا من حيث الاقتصاد ولا من حيث

(1) المصدر السابق، ص10.

السياسة. يتساءل يوسي ميلمان أيضا عن حقيقة ما يجب أن يطرحه كل إسرائيلي اليوم عن نفسه: هل هو إسرائيلي أم يهودي؟ السؤال الذي يجعل أمثال يوسي يتعجبون وهم الذين يرون أنهم من بين 80 في المائة من الإسرائيليين ملاحدة لا علاقة لهم بالتّدين. ومثل هذه التساؤلات المنبعثة من رماد الحروب التي تخوضها إسرائيل بنوع من الهسترة واللّامعنى جدير بأن يدفع بالمجتمع الإسرائيلي أن يطرح السؤال مجددا حتى على تلك الأجوبة المغشوشة التي أحاطتها إسرائيل بهالة مؤسطرة من الطمئنينة الإستراتيجية التي علّقتها على شرط الرعب المستدام من جانب واحد قبل أن تقلب المقاومة هذه المعادلة وتعرّي على حقيقتها، أو على الأقل أدخلت الريبة على نجاعتها. لا سيما وأن نظرية الأمن الإسرائيلي قامت على مفهوم الردع والترعيب وكلاهما لم يعودا يجديان نفعا في مناخ أشبعته المقاومة بثقافة التحدي ومنحته فرصة لتمديد أفق مختلف لمعالجة معضلة الاحتلال. ولا شك أن هذا السؤال عاد إلى الأذهان لمجرد أن بضعة صواريخ خاوية على عروشها لم تكن حربا حقيقية على إسرائيل خلال حرب الخليج. لذا يقول ميلمان: «لقد جلبت صواريخ سكود العراقية لكل بيت إسرائيلي حقيقة مهمة ربما حاول الإسرائيليون وعلى مدى ثلاثة وأربعين عاما بعد الاستقلال تناسيها أو إلغاءها ولربما التقليل من شأنها ألا وهي أن التقدم التقني والعصري لدولة إسرائيل مجرد زوبعة في فنجان»[1].

ولو صبر ميلمان قليلا لقال حتما الكثير عن وضعية إسرائيل وهي تشهد هزيمتها العسكرية في العدوان على لبنان في تموز

(1) المصدر السابق، ص11.

2006، حينما فشلت كل خططها الحربية في تحقيق القدر الكبير من المفاجأة كما باتت الميركافا الخيالية ـ عنوان التفوق الحربي الإسرائيلي ـ قبرا متحركا، أمام لعبة صواريخ المقاومة. إن إسرائيل لم تعد قادرة على غزو منطقة توجد بها مقاومة. حصل هذا في لبنان وتكرر في فلسطين. تحتاج إسرائيل إلى غباء أكبر مما سبق لكي تعيد الكرة ثالثة دون أن تكون قد حفظت الدرس جيدا. وهذا يفرض عليها أن تهدم نظريتها الأمنية وتعيد بناء نظرية أخرى، وهذا يتطلب وقتا إضافيا سيجعل إسرائيل تواجه وضعا مرتبكا في سياستها الحربية في البحث عن بديل. وقد سبق وذكرنا أن نظرية الأمن الإسرائيلي لم تكن اختيارا بل هي ضرورة لا تقوم إسرائيل من دونها. فالرجوع إلى الوراء يفرض على إسرائيل نظرية في الأمن لن تقبل بها، لأنها تجعلها في حالة من الضعف. وعلينا أن ندرك قيمة استقرار الدول ذات المشروعية التاريخية والجغرافية. إن الدولة التي تتمتع بالمشروعية تستمر في الوجود حتى مع ضعفها. لكن إسرائيل يجب أن تظل الأقوى حتى تستمر. لان ضعفها بطبيعة الحال يعني زوالها. وفي كلتا الحالتين: عجز نظرية الأمن الجديدة عن تحقيق أهدافها. وعدم إمكانية تحقيق بديل أمني لأنه تحصيل حاصل في ضعف إسرائيل. يظل المستقبل في صالح المقاومة، ما يمنح العرب قدرة على أن يتحرروا من كل القرارات التي فرضت في زمن الهزيمة. إن المقاومة لا تنفرد هنا بالغنم، بل ليس لها من الغنم سوى أن أعادت الثقة إلى العرب بأنهم يملكون فرض شروطهم على إسرائيل أو على الأقل الدفع باتجاه إضعاف إسرائيل الذي لا يتطلب في مثل هذه الحالة سوى الحد الأدنى من دعم المقاومة.

يتحدث ميلمان عن عدد من الدراسات التي أجريت في إسرائيل والولايات المتحدة الأمريكية حول المناطق التي ظلت محمية بصواريخ باتريوت الأمريكية ضد صواريخ سكود العراقية بعد حرب الخليج. وكان الملفت للنظر أنه بالإضافة إلى حجم الأضرار التي خلفتها صواريخ سكود قبل نصب بطاريات باتريوت، هناك أضرار سببها إطلاق باتريوت لاعتراض 11 صاروخ سكود، تقدر بجرح مائة وثمانية وستين شخصا وتدمير ما يقارب ثمانية آلاف شقة سكنية في ضواحي تل أبيب[1]. وهذا يؤكد أن إسرائيل ستدفع حجما من الخسارة حتى وهي تدافع عن نفسها بآخر التقنية. تصور لو أقدمت إسرائيل في مثل هذه الحالة لاستعمال القوة النووية، ما هو حجم الضرر الذي ستجنيه إسرائيل على دولتها؟! وأي عقل علمي سيتيح لإسرائيل إن هي لوّحت باستعمال السلاح النووي إذا هي ظلت دويلة محاطة بهالة من انتشار الدخان النووي؟

يتحدث ميلمان عن وضعية إسرائيل عشية حرب الخليج. ومع ذلك يؤكد على حقيقة وجب أخذها بعين الاعتبار. أن صواريخ باتريوت لم تكن قادرة على حماية إسرائيل من «إذلال صاروخ سكود العراقي». وقد أدرك جنرالات إسرائيل هذه الحقيقة حسب الكاتب، إلّا أنهم لم يشاؤوا اقتسام هذه الحقيقة مع الشارع الإسرائيلي. الأمريكيون سبق وأن عرضوا شراء هذه الصواريخ، قبل أن ترفضها إسرائيل باعتبارها تسعى لمنظومة صواريخ ملائمة لها. وحيث قامت الحرب قبل اكتمال بناء هذه المنظومة، وقع ما وقع. تعلقت إسرائيل كالغريق ببطاريات باتريوت ولكنها كانت تدرك أن

---

(1) المصدر السابق، ص16.

ذلك لن يمنع وصول صواريخ سكود العراقية إلى تل أبيب. لكننا نسأل بدورنا، بعد كل ما حصل، فإن إسرائيل في حرب تموز 2006 وقفت عاجزة أمام مئات الصواريخ التي بلغت حيفا وما بعدها، حجزت الساكنة الإسرائيلية طيلة حرب 33 يوما تحت الأرض وعرضت الاقتصاد الإسرائيلي إلى ما يشبه الشلل. إن إسرائيل كانت وستظل عاجزة عن حماية منشآتها من أي تهديد صاروخي. وحينما تصبح الحرب مفتوحة وجادة تظهر إسرائيل مزيدا من العجز ينكشف حجم قوتها الحقيقي خارج الديماغوجية الحربية الإسرائيلية.

إن أهم ما يلفت نظر ميلمان هو أن المجتمع الإسرائيلي تغير. لعل هذا التغير يستدعي طرح أسئلة جديدة لم تكن تطرح. لقد قدم أفضل توصيف لحالة الإسرائيليين اليوم: «لقد شرع الإسرائيليون الجدد بالمسير فوق حبل مشدود يربط بين العصرانية والدنيوية والتعبير الديني التقليدي. إنهم تركيبة غريبة من الليبرالية الممزوجة بضيق العقل الرديء»[1].

إن جيل إسرائيل الجديد بات أكثر ريبية حيال وجوده ومستقبله. لقد فقد صبره «وتحلّى بالمتعية، وليس عسيرا تعريفهم في إطار الطبقة الوسطى الملهمة بالقناعات السريعة والعطاء القاصر وبالنتائج الفورية مع الرغبة نحو حلول سحرية وسهلة لكل الأعباء السياسية والاقتصادية والاجتماعية. لقد سلخوا من تفكيرهم مبدأ التضحية الفردية وأخذوا يشككون الآن بتضحيات الإسرائيليين من قبل. إنهم على طرفي نقيض ليس مع مؤسسي الحركة الصهيونية

---

(1) المصدر السابق، ص18.

الأوائل وأتباعهم بل مع الأجيال التالية الأقل مثالية من أولئك الأسلاف»[1].

هذا هو حدّ التغيير الذي يجتاح إسرائيل وينحت في جوّانيتها المنيعة بصناعة ديماغوجية حقيقة مصير آيل إلى الانهيار السياسي والعسكري والمجتمعي. وتبدو هذه الحقيقة أوضح من أي وقت مضى، لا سيما حينما تتسع رقعة البوح والاعتراف الذي يأكل الوعي الإسرائيلي ويقلب عليها صفحة جيل جديد سيضطر اليوم أو غدا أن يفكر بأقل من مثالية بناة إسرائيل، وقد يفكر في زحزحة الوعي الصهيوني، وهو ما يترتب عليها آثار جمّة، واحدة منها هو ما ستشهده السنوات القادمة من هجرات معكوسة، لا نستبعد أن تسد في وجهها حدود العالم الحرّ، وقد نشهد شتاتا جديدا اختياريا، وسيكون العالم العربي والإسلامي مستقبلا مغريا في حال انسداد الآفاق. هل نتحدث إذن عن أن حلّ المسألة اليهودية قد يكون بيد العرب والمسلمين؟ هذا ليس مستبعدا. لكن المقاومة هنا تجيب عن هذه المسألة بلغتها الجادة والعملية.

---

(1) المصدر السابق، ص18.

حفر المنحدر لبلوغ المرتفع

هذه حكمة أتبعها العدو وركز عليها في استراتيجيا مواجهته للعالم العربي. يقول شلومو شولسكي: «لا يمكن الاستيلاء على المرتفعات إذا كانت خالية من الحفر»[1].

وعليه، لقد أمكن لإسرائيل عبر وسائل الضغط والحرب والأعمال القذرة أن تحفر في المنحدر ليسهل عليها التسلق إلى القمة في صراعها مع العرب. وعلى سبيل المثال، سعت إسرائيل لتفتيت الصف العربي وخلق نزاعات بين الأقطار العربية وأدخلتهم في دورة الحسابات القطرية الضيقة بتوسيع تناقضاتهم واختلاف مصالحهم، فكان ذلك كافيا لتمكينها من الصعود إلى المرتفع.

وكان من المطلوب دائما من المقاومة أن تستفيد من كل هذا الجهد الصهيوني منذ تاريخ هذه الحركة قبل نشوء إسرائيل إلى اليوم، لحفر منحدراتها لبلوغ قمتها في هذا التحدي. إن إسرائيل سعت بالموازاة مع ذلك إلى سد كل ثغراتها بالقدر الذي سعت وسعها لاكتشاف تلك الحفر في منحدراتنا. بل والعمل على توسيع

(1) ريتشارد ديكون: المخابرات الاسرائيلية، تـ: محمود فلاحة، ص70، ط1 ـ 1987 دار طلاس، دمشق.

تلك الحفر وإيجاد الكثير منها لهذا الغرض. ويبدو اليوم واضحا أن المقاومة شاهدة على ضعف الأداء العربي منذ بداية هذا الصراع، في صيانة تلك الحفر بله وجودها عند عدو دخل المنطقة كجهاز دولتي متكامل وضع كما توضع القناطر والظلّاة الجاهزة على الطرقات. فالمقاومة يعود صمودها اليوم ونجاحها إلى أنها أدركت بعضا من تلك الحفر في منحدرات العدو مما مكنها من اكتساب هذه القدرة على تمطيط زمن الحرب، من منطلق أن أي تمطيط في زمن الحرب هو حفر متقن في تلك المنحدرات، لأنه يظهر عجز الحربية الصهيونية ويكشف عن جبن فوارسها المتخيلة طبقا للأسطورة الشائعة: الجيش الذي لا يقهر. وبات ضروريا أن توسع المقاومة من الحفر في المنحدر وتجتهد وسعها، لأنها في الحقيقة بعد حرب تموز لم تعد المقاومة في مرحلة الكشف عن تلك الحفر ولا حتى في الاجتهاد من أجل مزيد من الحفر، إننا نرى أنها اليوم دخلت طور استعمال الحفر ووضع الأقدام عليها في اتجاه الصعود إلى المرتفع.

البراديغم المقاوم وآثاره على السياسات انطلاقا من نموذجي حرب تموز وغزة: ما الذي تغير في المواقف وكيف نتصور منحنى المواقف والسياسات والمبادرات التي أعقبت المعركتين؟

بعد غزة كانت الشروط قد نضجت لتفرض على الخطاب السياسي العربي الرسمي اعترافا بحق المقاومة وإدانة العدوان. هذا تقدم نوعي وإن كان في سياق ملتبس لأن تولد الموقف الداعم للمقاومة يجب أن يخضع لشروط الولادة العسيرة من رحم سياسات تشكلت أسسها في زمن الهزيمة وشروطها. إنها حالة تخلّق جديد

لخطاب جديد سيحدث تحولا في الخطاب السياسي الرسمي وذلك يتوقف على مدى صمود المقاومة واستمراريتها.

كان لا بد أن ندرك بأننا في المعارك التي خاضتها المقاومة في جنوب لبنان وفي غزة، أن الأمر يتعلق بالدرجة الأولى بتحقيق أهداف يجب أن لا تقرأ في حجم البنى التحتية التي انهارت وحجم الضحايا المدنيين الذي قضوا في الحرب. فهذا أمر متوقع من كل حرب غير متكافئة من حيث العتاد الحربي واللوجيستيك المادي. بينما قد تكون الحرب من الناحية الأخرى غير متكافئة لصالح العرب متى لاحظنا إمكانات التعبئة الروحية والمعطى التاريخي والجغرافي.

قلنا أن معرفة العدو ومعرفة حدود قوته، مقدمة الواجب في العمل المقاوم. ربما بدا الأمر بديهيا حتى الآن. فلا تخلو وصية من وصايا الحرب من ذكر أهمية معرفة العدو وعدم التقليل من أهمية ذلك. ربما مع تحقق هذه المعرفة تكون مسألة الانتصار محتملة. لكن مع الجهل بالعدو لا خلاف حول حتمية الهزيمة. وفي كل حروب العرب مع إسرائيل لم تتحقق المعرفة الكاملة بالعدو. وقد تطلب الأمر مرحلة طويلة للوقوف على بعض الحقائق من دون أن تتحول إلى سلاح في يد العرب. ولا يخفى أن كل ما لإسرائيل بعد الدعم السخي الذي تتلقاه من حلفائها وفي مقدمتهم الولايات المتحدة الأمريكية، هو انتصارها في جانب المعرفة وحجم وجدوى المعلومات. غياب المعرفة بالنفس والعدو والظروف المحيطة والإمكانيات المتاحة شرط من شروط الهزيمة. إننا مع افتقاد الحد الأدنى من المعرفة بالنفس والعدو لن نحسن الدفاع ولا الهجوم ولا حتى المناورة والخداع في الحرب. فبمقدار المعرفة تنمو إمكانيات

النصر حتى تغدو أكثر من محتملة، وفي لحظات الأوج المعرفي يمكننا أن نتحدث عن يقين بالنصر. إننا مدينون في تمثل هذه الحقيقة لكل من نظّر للحرب وتحدث عن سر الانتصار منذ العصور الغابرة حتى اليوم. انظر مثلا إلى «فن الحرب» للقائد العسكري الصيني الذي عاش في القرن الخامس قبل الميلاد، ولا تزال تعاليمه العسكرية تحمل قيمة مضافة لكل أشكال الحروب عبر التاريخ بما فيها الحروب المعاصرة. بتعبير آخر إنه لم يستنفذ أغراضه بعد. لذا بات بمثابة كتاب مقدس للحرب لم يذهب بريقه حتى اليوم حيث نتوفر على تقدم باهر في وسائل الحرب المادية والنظرية وتطور الاستراتيجيا. يظل فن الحرب أهم كتاب في الاستراتيجيا قبل «مع الحرب» لكلاوزوفيتش. ومن المؤكد أن هذا الكتاب وضع في الأصل لحرب تتطلب الهجوم. أي هي حرب كلاسيكية لأنها تتضمن الهجوم والاجتياح والتموقع. ولكن إذا ما اعتبرنا أن هذا الكتاب تحول مع مرور الزمن إلى ملهم استراتيجيات خارج «فن الحرب» تعدت إلى الصناعة والتجارة وقضايا من ذلك القبيل عند اليابانيين الذين أفادوا منه استراتيجيا الحرب للساموراي كما أفادوا منه استراتيجيا التجارة والاقتصاد في زمن النهوض بالنهضة اليابانية وكذا الكوريين وغيرهم، فإننا نعتقد أنه من المؤكد أننا نستطيع أن نجعله بالأولوية القطعية مصدرا للمقاومة. إن المطلوب أن نحول استراتيجيا العدو إلى برنامج للاستفادة كما تمثل اليابانيون طرق معارك الصينيين، خصمهم التاريخي. هنا مع سون تزو نجدنا أمام فلسفة كاملة للحرب تجعل من الانتصار ليس مطلبا لعقيدة المحارب فحسب، بل النصر جملة شروط وقواعد حتمية، كما الهزيمة نفسها هي نتيجة شروط

وأوضاع حتمية. لكن بالنسبة للمحارب يستطيع أن يتمثل هذه القواعد المؤدية للنصر وهزيمة العدو لكنه في الوقت نفسه لا يستطيع أن يحقق ذلك بالضرورة. إن أهم فكرة هنا تكمن في ما اعتبره سون تزو هزيمة العدو لنفسه. إن المقاومة من هنا مطالبة بتحين الفرصة لإرغام العدو على إلحاقها بنفسه. وهنا كان سون تزو قد وضح الكثير من الحالات والثغرات والظواهر التي تؤشر على أن عدوا ما يوشك على خسران الحرب. يقول سون تزو:

«إذا كنت تعرف العدو وتعرف نفسك، فلا حاجة بك للخوف من نتائج مائة معركة» [1].

فمهما كانت النتيجة فإنها ستكون أفضل من كل النتائج التي تتأتى جزافا من دون معرفة حقيقية بالنفس والعدو. لأن الهزيمة مع فرض تحققها مع وجود تلك المعرفة، ستتحول الى درس موضوعي لاستعادة القدرة على تحقيق الانتصار. بمعنى آخر نستطيع القول: أن المقاومة تعتبر منتصرة متى امتلكت المعرفة بحدود قوتها وحدود قوة العدو. وإذا لم تكسب المعركة فهذا لا يعد هزيمة بل خسارة معركة.

ويذكر تزو من ناحية أخرى: «إذا عرفت نفسك لا العدو، فكل نصر تحرزه سيقابله هزيمة تلقاها.. إذا كنت لا تعرف نفسك أو العدو ستهزم في كل معركة»[2].

وفي منظور سون تزو، هناك علاقة جدلية بين الدفاع

---

(1) فن الحرب، سون تزو، تـ: رؤوف شبايك، 17 يونيو 2006 / shabayek. com.

(2) المصدر السابق.

والهجوم.. بين النصر والدفاع.. فالمعرفة تحدد واجبات المحارب. فالدفاع هو وظيفة المقاومة حينما لا تملك القوة الكافية لهزم العدو. بينما تفعل ذلك متى كانت لديها القوة الوافرة. وتتوقف قدرة الدفاع وقدرة الهجوم على مقدار معرفتك بالنفس من جهة ومعرفتك بالعدو من جهة أخرى. من هنا قوله أيضا: «علمك بعدوك يعرفك كيف تدافع وعلمك بنفسك يعرفك كيف تهاجم. الهجوم هو سر الدفاع، والدفاع هو التخطيط للهجوم»[1].

فحتمية النصر إذن تتوقف على مدى الموازنة بين معرفة حدود قوة النفس ومعرفة حدود قوة العدو. وقد بات واضحا أيضا أن العرب في أهم انتصاراتهم على إسرائيل في حرب 73، كانوا مدينين لمستوى من التفوق في صياغة خزان معرفي بالعدو مع القدرة على استثمار هذه المعرفة بما فيها الإحساس الإسرائيلي بعدم وجود إمكانيات للعرب أو ذكاء لخوض حرب ناجحة ضد إسرائيل. وكل محاولات إسرائيل بعد ذلك تركزت على مدى منع العرب من التوفر على المخزون المعرفي الحقيقي الذي يمكنهم من تحقيق الانتصار في أية حرب، كما تركز في تحقيق الحد الأوفر من المعرفة بأحوال العرب وإمكانات إسرائيل مما ساعدها على تحقيق قدرة كبيرة بتوظيف المعرفة في سياق الخداع وفي سياق الحرب النفسية على العرب. فحينما تجهل إمكانات وطريقة تفكير العدو حتما ستنهزم أمام لعبة الخداع الكبرى التي تعتبر المعرفة شرطا من شروطها. فالخداع الحربي لا يتحقق بالجهل بالنفس وبالعدو. ولقد كان ذلك واضحا أيضا من خلال نجاح إسرائيل من

---

(1) المصدر السابق.

بناء نظريتها في الأمن تفوقت بها على العرب لأسباب كثيرة يمكننا أن نشير إلى أهمها، ألا و هو النسبية والمرونة والتجدد. وخلافا للعرب كانت نظرية الأمن الإسرائيلي تسعى للتكيف جدا مع المعطيات الظرفية التي يتحكم بها المناخ والجغرافيا والاقتصاد والثقافة. إن إسرائيل لم تطبق نظرية في الأمن جاهزة غير قابلة للتطور والتكيف بل قامت بتطوير نظرية في الأمن غاية في المرونة والنسبية والقابلية للتطور.

يتحدد إيلي زعيرا رئيس المخابرات الحربية الإسرائيلية الأسبق، عن حاجة المجتمعات إلى وضع نظرية في الأمن لتجاوز التحديات. وهي ضرورة لا اختيار معها. كما أن ما من دولة إلّا ولها خصوصيات تفرض نفسها على نظرية الأمن. وقد ضرب مثلا بدولتين: سان مارينو و الولايات المتحدة الأمريكية. غير أنه وللمفارقة يعتبر أن نظرية الأمن بالنسبة لمثل هذه الجمهورية الصغيرة الواقعة كجيب داخلي في إيطاليا لا تلائم إسرائيل، لأنها تقوم على السلبية المطلقة وعدم افتراضها أنها من الممكن يوما أن تشكل تهديدا لإيطاليا. وعلى خلاف ذلك فنظرية الأمن الأمريكية تقوم على التدخل الدائم. ويبدو الأمر واضحا هنا ولا يحتاج إلى مزيد من التعرف عليه. لكن في نظر زعيرا أنه لا وجود لنظرية أمن مقدسة لا يمكن التخلي عنها. بل وجب إعادة النظر فيها باستمرار. على أن هذه المراجعة لا ينبغي تتم إلّا بعد تأنّي ودراسة دقيقة. ولا نستغرب أن تكون إسرائيل قد راجعت نظريتها في الأمن منذ باتت صيدا عسكريا واستخباريا سهلا للمقاومة. لكن العجيب أن الكثير من الدول العربية لا زالت مصرّة على الثبات على تصوراتها الأمنية السابقة تجاه إسرائيل، أي لم تساهم المقاومة وإنجازاتها في إعادة

النظر في نظريتها الأمنية القائمة على القهر الصهيوني الدائم ورعبه الذي لا يقاوم. وهذا خلافا للعدو الذي قرر بناء نظرية في الأمن بناءا على نتائج ومعطيات حرب التحرير. يقول إيلي: «وفور انتهاء حرب التحرير أصدر بن غريون أوامره باعتباره رئيسا للوزراء ووزيرا للدفاع ببلورة نظرية أمن قومية لدولة إسرائيل»[1].

كان بن غوريون هو من وضع الأسس الفلسفية للنظرية الأمنية الإسرائيلية فيما ترك مهمة التفاصيل للقيادة العسكرية. وما يلفت النظر إلى ذلك هو أنه بنى هذه النظرية على عنصرين:

- علاقة القوة الديموغرافية بين سكان اسرائيل اليهود وبين الدول العربية

- مساحة إسرائيل الجغرافية المحدودة[2].

وإذن، كان لا بد من وجود حلّ يتجلّى في الرفع من عدد الجنود ليصبح الجيش الإسرائيلي نسبة إلى عدد السكان أكبر جيش في العالم، لأنه يقوم على جنود الاحتياط بالإضافة إلى الجيش النظامي، أي «إرساء دعائم قوة الجيش المركزية على أساس هيكل الجيش الاحتياطي»[3]. وذلك تحت شعار: «كل الشعب جيش». ويتطلب الأمر أن لا يؤدي ذلك إلى حدوث مشكلة اقتصادية واجتماعية إلّا في حالة الطوارئ. وأما ما يتصل بالنقطة الثانية، فإن إسرائيل وهي تضع نظريتها الأمنية كانت تدرك أنها محدودة

---

(1) مذكرات إيلي زعيرا: حرب يوم الغفران، ص 27، تـ: توحيد مجدي، ط 1، المكتبة الثقافية، بيروت 1996م.

(2) المصدر السابق، ص28.

(3) المصدر السابق، ص28.

الجغرافيا وأنها لا تتحمّل أن تحتل القوة العربية من إسرائيل جزءا مهما بدا صغيرا. بخلاف الدول الكبرى فهي تتحمل ذلك. وقد ضرب إيلي زعيرا مثالا بروسيا التي احتلت منها ألمانيا مساحة كبيرة خلال الحرب العالمية الثانية دون أن يؤثر فيها ذلك. باختصار، إن إسرائيل لن تتحمل أن يقتطع منها أقل جزء.وبعيدا عن زعيرا، نجد أن النظرية الأمنية للعرب يجب أن تقوم على فكرة العمق الإستراتيجي ونسبة المساحة التي تحتلها الدول العربية بالإضافة إلى الامتداد الشعبي والروح المعنوية للمقاوم العربي. ومثل هذا بديهي بالنسبة للمقاومة. على الأقل يذكّرنا ذلك في الخطاب الذي قدمه ماوتسي تونغ في أيار من عام 1938. إذ بينما تراءى له العدو في كامل تقدمه التقني إلّا أنه سعى إلى تعويض ضعف الصين بقوة مساحتها بالمقارنة مع مساحة اليابان. كما بالمقارنة مع عدد جنوده. فهو يصور المفارقة كالتالي: «ليست الصين بلدا صغيرا كما أنها ليست بلدا مثل الاتحاد السوفيتي، بل هي بلد كبير و لكنه ضعيف. و إن هذا البلد الكبير و الضعيف يتعرض الآن لهجوم بلد صغير و لكنه قوي، إلا أن هذا البلد الكبير و الضعيف يشهد اليوم مرحلة تقدم، و من هنا نشأت القضايا كلها، و في هذه الظروف فإن في استطاعة العدو أن يحتل مناطق واسعة جدا و ارتدت الحرب طابع حرب طويلة الأمد. إن هذا العدو سوف يحتل مناطق واسعة جدا في بلدنا الكبير، لكنه نظرا لأن قواته المسلحة غير كافية بسب صغر بلده، سيترك في المناطق المحتلة أماكن كثيرة لا يستطيع السيطرة عليها، لذلك فإن المهمة الرئيسية لحرب العصابات المناهضة لليابان ليست القتال في الخط

الداخلي لدعم حملات القوات النظامية بل هي القتال بصورة مستقلة في الخط الخارجي»[1]

لقد أدرك واضعو نظرية الأمن الإسرائيلي عمق الجغرافيا العربية. وحيث بات من المرفوض أن يحتل جزء من إسرائيل، فإنهم أدركوا أيضا أن الجيش الصهيوني النظامي سيعجز عن ردّ أي هجوم عربي متى وقع ونجح. ولذا كان لا بد قبل أن يتم التفكير في الهجوم أن تتمكن إسرائيل من دعوة جيش الاحتياط. ومن المؤكد أن مثل هذه النظرية تتطلب اقتدارا استخباراتيا عاليا. لأن أي خطئ في تقدير استخباراتها يجعلها في موقف حرج للغاية.

هذا هو الكيان الإسرائيلي؛ كيان بلا عمق ولا قدرة على تحمل هجوم ولو صغير ولا حرب طويلة الأمد، لأنها تفرض إنفاقا كبيرا على جيش الاحتياط يوقعها في المحظور: أي هزّات اقتصادية ومشكلات اجتماعية وسياسية. فحينما تفكر إسرائيل في العدوان، فليس لأنها قوية. بل لأن ذلك متطلبا حتميا لنظريتها الأمنية وعنوان ضعفها الجغرافي والديمغرافي. تحتاج إسرائيل أن تتعرّى وتكشف عن سياستها العدوانية وتقتل أكثر وتدمر أكثر لأنها لا تتحمل الحرب النظامية الطبيعية، فلا التاريخ يسعفها ولا الجغرافيا تدعمها.

من هنا أمكننا التعرف على مصدر قوة نظرية الأمن

---

(1) ماو تسي تونغ: مركز دراسات وأبحاث الماركسية واليسار ـ قضايا الاستراتيجية في حرب العصابات المناهضة لليابان ـ (مايو أيار 1938).

body=Comments about your article http://www.rezgar.com/debat/show.art.asp?aid=99717

الإسرائيلي من حيث هي تقوم على شرط التكيف مع المعطيات الموضوعية للكيان المحتل داخل خريطة الشروط الدولية والإقليمية، المادية والرمزية. وقد بات واضحا أن المقاومة استطاعت أن تخرق نظرية الأمن الإسرائيلي. ومن هذا التاريخ بدأ ميزان القوة يتأرجح لصالح تنامي قدرة المقاومة على الردع وتحقيق نوع من التوازن في الرعب. وقد كان لا بد أن ننظر إلى هذه النتائج بمنظور دقيق، لأن تحقيق التوازن في الرعب بين جيش نظامي ومقاومة في ظل شروط دولية وإقليمية تصب في ميزان القوى الإسرائيلي يعد تفوق مميزا يحسب في حساب مكتسبات الفعل المقاوم. ويمكن للمقاومة في انجازاتها الكبرى أن تكون شاهدا على هشاشة نظرية الأمن العربي كما تكون شاهدا على فشل نظرية الأمن الصهيونية. فالأولى نظرا لأن العرب لم يوظفوا عنصر القوة نفسه الذي راوغته نظرية الأمن الصهيوني وأقامت على أساسه نظريتها. والثانية نظرا لأن نظرية الأمن الصهيوني قامت على أساس مواجهة جيوش نظامية ولم تدخل في الحسبان واقع المقاومة ذات الاستراتيجيا والتكتيك المختلفين. والمقاومة من هذه الشهادة على عصر هزيمة العرب وانهيار نظرية الأمن الإسرائيلي، تقدم إمكانية جديد من شأنها أن تفرض تغييرا في الاستراتيجيا العسكرية العربية برمتها وتمنحها نموذجا حيّا لتحقيق التجدد والتطوير المناسبين لإمكاناتها في الحاضر والمستقبل. ولكن ما يبدو واضحا من نظرية الأمن الإسرائيلي التقليدية، أنها سلكت طريقة الولايات المتحدة الأمريكية في الهجوم والردع وليس نظرية الأمن لتلك الدويلة الصغيرة التي تحدث عنها زعيرا. ما الذي يجعل إسرائيل المحدودة الصغيرة تتبنى نظرية الأمن الأمريكي في إعلان الحرب والهجوم

والردع؟ واضح تماما أن منطق الاحتلال والرغبة في الهيمنة هي من يفسر كل هذا الاختيار الأمني. هل يا ترى لا زالت تنظر إسرائيل للعنف الكبير الذي ألحقه المحتل الأوروبي لأمريكا وإبادته وترويعه للسكان الأصليين بكثير من الإعجاب؟ لا أخال ذلك. فالفارق كبير. إن الهنود الحمر لم يكونوا عارفين بجذور عدوهم. ولهذا انهزموا حتما. بينما لا أحد يجهل تاريخ إسرائيل ولا مخططاتها حتى لو لم تتحقق عنده الإرادة السياسية لمواجهتها.

إن إسرائيل على الأقل في المدى المنظور لا تفكر في الكف عن الردع والعدوان والحرب. وسوف تضطر لتعديل نظريتها تلك لأسباب كثيرة. منها واقع الانتصارين في جنوب لبنان وغزة الذي أفشل تطبيق نظرية الردع والهجوم بعد أن فشلت إسرائيل في اختراق المجال المقاوم. وقد كان ذلك حتما هزيمة لنظرية الأمن الإسرائيلي، لأنها تقوم على مدى قدرتها في إنجاح أسلوب الردع والهجوم والاحتلال. ومن ناحية أخرى يعود ذلك إلى سبب موضوعي وهو أن نظرية الهجوم والردع والرعب بدأت تشهد نهايتها في الولايات المتحدة الأمريكية نفسها. ويبدو ذلك واضحا من أن هينتنغتون ذكر في أوج الإحساس بغرور القوة الأمريكية، أن أمريكا لم تعد بل ليس في مقدورها الهيمنة على العالم. ومن جهة أخرى بات واضحا طيلة الفترة البوشية أننا كنا أمام امتحان عسير لهذه النظرية في أوجها، حيث واجهت الفشل الذي انتهى إلى أن جعل الولايات المتحدة الأمريكية اليوم تدرك حدود قوتها الراهنة، ساعية إلى قلب مفاهيمها بجعل الديبلوماسية بديلا عن الحرب، ومدّ اليد لمن وصفتهم طيلة الحرب السريالية على الإرهاب بمحور الشر والدول المارقة. وقد كشفت عن أنها أخطأت في تقدير المعلومات

وأظهرت عدم تكرار خطأ غزو العراق والتثبت في الاستناد إلى تقارير استخبارية في إعلان الحرب. ويبقى الأهم من كل ذلك أن هذه النظرية الأمنية الأمريكية النموذجية لإسرائيل والتي استنفذت أغراضها وباتت عاجزة عن تكرار تفوقها الأسطوري، أنها أدت إلى كارثة اقتصادية في الولايات المتحدة الأمريكية وفي العالم وفي إسرائيل، إن أحسنت الإدارة الأمريكية الخروج منها، فهذا يؤكد أن أمريكا لو استمرت في الجولة الرئاسية الجديدة على المنوال نفسه لتحولت حتما إلى دولة ثالثية، وربما كان ذلك إن لم تكن بدأت مؤشراته اليوم إذانا بانهيار الاقتصاد الحر. وفي مثل هذه الحالات التي باتت الأزمة الاقتصادية تنخر المجتمع الأمريكي الذي لم يعد بإمكانه الخروج من حالة العجز الاقتصادي، كيف نتصور استمرار إسرائيل في غياب دعم أمريكي سخي وفي زمن لم تعد الدول كريمة لحد تفضيل إسرائيل على اقتصادياتها المحلية ومتطلبات رفاهية شعوبها التي بدأت تنزلق في خيارات مقاومات شعبية على في الشارع وبداية تدهور أوضاع الطبقة الوسطى في دول وصفت دائما بدول الرفاهية والازدهار.

المقاومة من التكتيك إلى الاستراتيجيا

الإستراتيجيا ليست خيارا. بل ضرورة تمليها شروط ومعطيات المواجهة. وقد يكون من الخطأ اعتبار أن قدر المقاومة أن تبرح مجال التكتيك في ميادين المواجهة. والمعرفة المقاومة تمكّن من فهم مغزى التحول الذي يفرضه تطوّر العمل المقاوم، إلى حدّ يصبح المكث في دائرة التكتيك مجلبة للهزيمة. فبمقدار نجاح المقاومة في استيعابها الاستراتيجي تقتدر على تحقيق النصر والحفاظ على مكاسبه.

لقد تقاطعت المقاومة سواء في لبنان أو غزّة مع المضامين الكبرى لحرب العصابات كما خلدتها ذاكرت الانتصارات التاريخية للفعل المقاوم في تاريخنا القديم منه والحديث. وهي حينما تقاطعت مع هذه التجربة وأحسنت تمثل أكثر جوانبها حيوية وجدوائية، اختطت لها أسلوبها الخاص النافذ والمرن الذي أكسبها شخصيتها المنيعة والممانعة في شروط صعبة من كافة النواحي. ويكفي أن أهم ما كان من الضروري أن يصار إليه في مشوار المقاومة وتطوير أدائها ومدى تعرفها على إمكاناتها، أنها خرجت من هيمنة الفكرة التكتيكية إلى فضاء التعلق الاستراتيجي. وهذا وحده يفسر كيف

فهم العدو أن العمق السياسي والإقليمي والثقافي والحضاري للمقاومة سواء في لبنان أو غزّة ظل هو هو نفسه، من حيث هو كل خريطة العالم العربي والإسلامي إضافة إلى أحرار العالم. فالمقاومة نجحت في استدخال الأمة في رهاناتها، لأنها تبنت كل قضايا الأمة في استقامة تراقبها الشعوب وتدرك بوعي حدود التزام المقاومة بها. نضج المقاومة الإيديولوجي المتمثل في تبني القضايا العادلة للأمة وكل القضايا التي هي محل اتفاق وإجماعات الشعوب العربية والإسلامية، وتشخيص الأهداف الحقيقية للمقاومة بعيدا عن مسالك قلب النظم وممارسة عنف الإرهاب، عزّز هذه الطهرانية المعشوقة للجماهير، وارتقى بالفعل المقاوم إلى فضاء الاستراتيجيا. وتعتبر الاستراتيجيا أيضا شرطا للفعل المقاوم نظرا لتداخل أهداف المقاومة مع أهداف الأمة الاستراتيجية. ومثل هذا الربط غدا تقليديا في تنظير رموز حرب العصابات وحركات التحرر الوطني مذ أوضحها أفضل توضيح زعيم الثورة الصينية ماوتسي تونغ. لقد أدرك هذا الزعيم التاريخي الذي أطلق واحدة من كبرى المقاومات في وجه الاحتلال الياباني، أن هناك فروق في حساب المعطيات ورصيد القوى بين المقاومة والعدو. وسعى إلى إبراز تلك الفروق بشكل دقيق ثم إبراز وظيفة تلك المكتسبات وتكييفها في صلب مكتسبات العمل المقاوم.

يتساءل ماوتسي تونغ حول ما إذا كان في وسع المقاومة أن تطرح على نفسها أسئلة استراتيجية أثناء حرب العصابات. فبما أن حرب العصابات لن تواجه سوى قضايا تكتيكية فلم الحديث إذن

عن القضايا الإستراتيجية؟ وقد اعتبر ماوتسي تونغ أن هذا قد يحدث لو أن الصين كانت بلدا صغيرا. ومن هنا حديثه عن مفارقة المساحة في قلب معادلة القوة بين المقاومة والمحتل كما أشرنا إليها سابقا. وبالإضافة إلى معطى المساحة والديمغرافيا، هناك العزيمة التي تتحلّى بها المقاومة والجماهير الشعبية. من هنا قوله: «إذن فلماذا لا نطبق على حرب العصابات المبادئ الإستراتيجية العامة لحرب المقاومة ضد اليابان؟»[1].

من المؤكد أن الدوافع الموضوعية لتحول المقاومة إلى القضايا الإستراتيجية لا تقف عند حدود ما تحدث عنه ماوتسي تونغ، بوصفه يتحدث عن التجربة الصينية بامتياز. لكن لا ننسى أن تشابك الخطوط وضيق المجال قد يصبح معطى أهم في الحسابات الإستراتيجية للمقاومة. تشابك المصالح والقضايا وحيوية المنطقة وتقارب الحدود وضيق المجال وغيرها من المعطيات التي تبدو غير مساعدة هي نفسها المعطيات التي ساعدت على تحقيق الانتصار. إن الراعي الغربي لإسرائيل لن يسمح لها بحرق المنطقة نظرا لحيويتها وأهميتها ليس في حساب مصالحه الصغرى بل في حساب التوازنات الماكرو اقتصادية الدولية. بمعنى أن للرعاية حدّ تقف عنده، وهو حينما لن يضحّي الغرب بنفسه وبالعالم من أجل أمن دويلة إسرائيل. تداخل وتشابك المصالح وتقارب المجال وضيق الجغرافيا ووحدة جداول المياه التي يشربها الجميع والمناخ الذي يتنفسه الجميع عوامل ساهمت في ردع إسرائيل من عدم استعمال السلاح النّووي. هذا مضاف إليه العمق البشري والثقافي والتاريخي

---

(1) سبق ذكر المصدر.

والجغرافي والديني للمقاومة حيث ليس لإسرائيل سوى أعماق توافقية ومؤقتة ورهينة بالشروط الإقليمية والدولية والأوضاع الإسرائيلية الداخلية نفسها.

هل تستطيع إسرائيل أن تختار الموت فداء الدولة؟

لم يعد بإمكان إسرائيل خوض حروب طويلة مثقلة لميزانيتها. كما لم يعد لها من هذا الرعب سوى بقايا عناصر سوف تتلاشى مع الزمان. وليس لها إلا الردع النووي وهو في تقدير فن الحرب وبلحاظ الوضع البيئي والمناخي الإقليمي مستحيل التحقق. إن إسرائيل تستطيع أن تلوح بالسلاح النووي لو أنها كانت ستكون بمعزل عن أضراره. أما حينما تصبح هي المتضرر الأول باستعماله، فسيفقد جدواه. إلّا أن يقال: أن إسرائيل ستنتحر حينما لا يترك لها المجال. وهنا نعود إلي أصل الحكاية: لو كانت إسرائيل تملك ذلك لما احتاجت إلى كل هذه الترسانة النووية للردع. فالذي يختفي وراء النووي يدرك أنه لا يملك عناصر الصمود والقدرة على الموت ـ ولو كانت إسرائيل تؤمن بالانتحار من أجل دولة لما حصل هذا التشرد التاريخي. حتما ليست إسرائيل أكثر تدينا من اليهود عبر التاريخ. إن كون اليهود لم تكن لهم دولة منذ الشتات، يعود لعدم اعتقاد اليهودي منذ ذلك الوقت بأن الدولة تستحق منه كل هذه التضحية. إن إسرائيل بمجرد أن تصبح أمة مضحية في سبيل كيانها ستسقط. لأنها حتى الآن هي دولة مدعومة وتحت رعاية المانحين.

لعل هذه هي نقطة الضعف الكبرى بالنسبة لإسرائيل. ومعرفة ذلك مهم بالنسبة للمقاومة. إن تركيبتها الاجتماعية والسوسيو- ثقافية عنصر إضافي لاستبعاد إقدام إسرائيل على هذا النوع من الاستشهاد من أجل تحقيق الدولة. تلك هي حدود القوة عند العدو. فإسرائيل اليوم لا تحارب بجيش ديني وعقائدي إلا من جهة الوظيفة التي تخفي حقيقة مجتمع إسرائيل العلماني الذي تحتل الدنيوية قاع فكره اليومي. إن تخالف تركيبة ثقافة مجتمع إسرائيلي ينزع إلى الاستهلاك ويقطع روابطه مع الثقافة الدينية و العقدية لمؤسسي الصهيونية ومنشئي الكيان الصهيوني الأوائل، هو معطى جديد يجعل اليهودي بشكل عام أبعد من أن يضحي بالوجود من أجل الدولة. إن الدولة وفكرتها لم تصبح على هذا الرسوخ إلا في ذهن بناة الصهيونية وقادتها. عاشت إسرائيل طيلة حروبها ضد العرب على ذاكرة خصبة من الانتصارات شكلت على طول هزائم العرب علاجا نفسيا لهذا الكائن الذي عانى ولا يزال من داء فقدان الدولة - بوصفه في التعريف التقليدي كائن بلا دولة -. وهي حتى الآن ورغم الإحراجات التي واجهتها من خلال احتكاكها بقوى الممانعة، لم ترد الاستسلام للوقائع الجديد التي باتت تهدد الذاكرة الصهيونية الموشومة بأسطورة الانتصار اللانهائي. لقد علقت مصير شعبها اللقيط ليس على سلام دائم وشامل وحقيقي حتى في الحد الأدنى، بل علقته على أسطورة الانتصار الذي لا يتبدل مهما بدا أن الظرفية الموضوعية لهذا الانتصار الأسطوري المدعوم قد تتغير يوما ولو بحتمية التاريخ والجغرافيا. وقد كتبت إسرائيل على نفسها هزيمة تاريخية كبرى يوم علقت مصيرها واستقرارها على نصر محروس، لأنها وببساطة ستخسر كل شيء بمجرد أن تنهزم هزيمتها الأولى.

إن مصير إسرائيل هو رهين بمصير الغرب. ولم يكن نيتشه مبالغا حينما اعتبر يوما الحضارة الأوربية لا تزال تئنّ وتتلوّى كأنها في انتظار الكارثة.

الحاضر شاهد على الماضي

ما كان في وسع المهزوم يوما أن يحاكم المنتصر. فمن يحاكم من؟

من هنا فقط ندرك من هو في مقام الشاهد على الآخر وعلى زمانيته. يبدو الجواب بديهي. ومن هنا بات ضروريا أن الاعتراف تذوب معه أسباب النزاع. الممانعة انتصرت. وبات الاعتدال في وضع غير مريح لأنه اعتبر خطأ أن هذا الانتصار موجه ضده لا ضد العدو. المشكلة ليس في أن الاعتدال والممانعة اشتبكوا في ساحة الصراع. بل المشكلة حينما قبلنا بتوصيفات غير بريئة.

بدعة الاعتدال والممانعة

ساد هذا الشعار المغلوط خلال الفترة التي سبقت قليلا العدوان على غزّة وطيلة العدوان وبعده حتى اليوم. شعار أصدرته القوى الخارجية وتلقفته الصحافة العربية وارتقى إلى مستوى التداول العام. لكن بات واضحا أن الفرقاء استسلموا في حمأة الحرب وشدة فظاعتها إلى هذا المسمى. وبات من يريد أن يعمق الفجوة لتتكرس الخريطة العربية المنقسمة على نفسها في محورين وجب أن لا يوجد بينهما من التخوم ما يرأب الصدع ويخفف اللهجة لصالح موقف عربي وإسلامي يصب في خدمة القضية الأولى: فلسطين. وكان لا بد أن يفهم الجميع أن مجال الديبلوماسية ومواقف الدول والساسة ووجهة السياسات ليست نهائية. وجب أن يقبل محور ما سمي بالممانعة بان هناك جبهة أخرى يجب أن لا يتم الاقتراب منها والوصول إلى صيغ للتفاهم ما دام لا أحد يمكنه إلغاء الآخر في هذه المعركة التي لا زال مصيرها يفرض حدا أدنى من التوافق العربي والإسلامي على أسس ناضجة وجديدة وحيوية. التخوفات التي تنطلق من محور الاعتدال تجاه محور الممانعة لا تخدم مصلحة أي منهما. وهذا الاعتراف ضروري وموضوعي، لأن القضية الفلسطينية خسرت الكثير حينما دبّ

الخلاف بين فصائلها. كما أن العرب خسروا الكثير حينما دبّ الخلاف نفسه بين محاورهما. لا نريد أن نتساءل ماذا خسر هؤلاء جميعا بافتقادهم الحد الأدنى من التوافق، فهذا سؤال بديهي والجواب عنه أكثر بداهة. لكن الاستسلام للعناوين مغالطة عمقت الخلاف ورفعت من حمى التخوين، إلى حد عدنا فيه إلى المربع الأول يوم كانت فلسطين محورا لتبادل التخوين وأحكام القيمة بين العرب. واعتقد أن ما ينتظر محور الممانعة بعد أن اظهر مقدرته على انجاز الكثير، أن يجتهد أكثر في استشراف مستقبل أفضل للوفاق العربي يكون هو طليعة رأب الصدع وتجاوز كل التفاصيل الصغيرة التي تحلى بها المزاج السياسي للطرفين معا. بالنسبة للمناعة أمكنها أن تصل إلى أن ليس لها عدوا من داخل الجامعة العربية ولا من داخل المؤتمر الإسلامي مهما تباينت المواقف ومهما ارتفعت حرارة الأحكام. وتحصين العالمين العربي والإسلامي من حالة الانشطار وفقدان التضامن والثقة بين بلدانه ومحاوره ليست حالة صحية يجب أن تدوم. وقد أظهرت المساعي المتكررة لتقارب ممكن بين الإخوة المتخاصمين على اثر كل حدث كبير إلى أن الخلاف العربي ـ العربي عارض ليس إلا. إننا ننطلق من قاعدة حيوية لعلها ما أمكن الممانعة بلوغه بوعي مكثف عبر فاعليتها المكثفة أيضا أن مواجهتها الحقيقية هي للتحدي الخارجي. وبأن لا أعداء لها في الداخل مهما حصل من وعكات وأعطاب في مسير ممانعتها المشروعة. وان الحرص على التضامن والوفاق العربيين هدف من أهداف الممانعة وجب عدم التنازل عنه تحت ضغط سياسات التعميق للخلاف العربي ـ العربي.

لعل إحدى علامات هذا التوصيف الملغوم أنه من شأنه أن

يحدث بلبلة وفوضى عارمة في المجال العربي. وهكذا بدأ النزاع والمكابرة تتضخم وتنزلق إلى ما دون حدود العقل ليصبح الأمر ينذر بحرب عربية ـ عربية وإسلامية ـ إسلامية. وهو منتهى ما تقتضيه الفوضى الخلاقة. هناك وجهتان للنظر في العالم العربي كان من المفترض أن تعالج بلغة ونمط مختلف من النقاش. هناك عطب تقني أصاب خطوط الاتصال بين المختلفين. بلا شك إن فكرة الاعتدال والممانعة كحدين للسياسات العربية فيه الكثير من المغالطة كما قلنا. لأن للممانعة حظا من الاعتدال كما للاعتدال حظ من الممانعة. سوريا التي شاركت في الحرب إلى جانب من حسبوا اليوم على الاعتدال، كانت في صف الاعتدال في كل مشاريعه حتى الأمس القريب متى تطلب منها ذلك الموقف القومي. كما لا أحد يمكن أن يصف دولة مثل قطر بأنها جزء من الممانعة لا صلة لها بقوى الاعتدال، لأنها ساهمت أيضا في كل ما تقتضيه منها التزاماتها على صعيد العمل الغربي المشترك في إطار الجامعة العربية. لذلك كان لا بد من استبدال هذه العناوين بتقسيمات إجرائية نسبية مختلفة كأن نقول: عرب المقاومة وعرب المراهنة. فالأوائل يعتبرون الطريق إلى السلام هو المقاومة الكاملة قبل المفاوضة. بينما الثواني يراهنون على التفاوض من دون أن يفترضوا المقاومة أصلا. أقل ما يقال هنا أننا أمام اختلاف في الرأي وتقدير المصلحة. وهذا يجعل الخلاف تقديريا لا جوهريا.

وكان من الطبيعي أن يتمثل الموقف المقاوم لغة مختلفة ايجابية بخلاف الموقف المهزوم. فالأول موقف تشكل عقدة خطابه ثيمات من قبيل: يمكن بل وجب أن نفعل.. يمكن بل وجب أن ننتصر.. ممكن بل وجب أن نتقدم... بينما الثاني لسانه: لا يمكن

بل مستحيل أن ننتصر.. لا يمكن بل مستحيل أن ننهض.. تتضخم أحلام وممكنات الانتصار عند الأول فلا يرى المستحيل. بينما تتضخم فوبيا المواجهة مع العدو فتمتد لتشلّ حتى خطابه السياسي فلا يرى الإمكان. وكل ذلك بسبب انهمامها بأسئلة التنمية. والحال أن الأمة التي لا تستطيع أن تنتزع حقها واستقلالها لا تستطيع أن تنهض وتستقل بنموها. التبعية لا تصنع تنمية. بل التنمية تصنعها المناورات وأحيانا المواقف. حينما ننظر في السياسات التنموية لدول متقدمة مثل اليابان، نجد أن الاستسلام في الحرب لم يمنع اليابان من المناورة والاستسلام المجاني رغم ثقل الهزيمة. بل لقد باعت استسلامها لمنافسها الامبريالي عن طريق صفقة كبرى جعلت اليابان تبلغ مكانتها في خريطة الدول الأكثر تقدما وتطورا في العالم. في العالم العربي لا نريد أن نعقد صفقة حتى برسم استسلامنا. نريد التبعية لا الاستقلال. والتبعية ليس فقط أنها لا تصنع انتصارا، بل لا تصنع تنمية. إن الرهان على الطاقة وحده خطأ استراتيجي. ليس فقط لأنه لا يفيد وقد أصبح التلويح بالورقة النفطية مستبعد في حرب العرب ضد إسرائيل. لكن لا ننسى أن الطاقة تنضب ولها بدائل بينما روح الشعوب لا تنضب وليس لها بدائل. إن الفعل المقاوم تراكمي. وعليه أن يتواصل لتحقيق كامل أهدافه التاريخية. إن المقاومة تدفع ثمن أخطاء الماضي فوجب أن تحاكمه وتحاسبه وتقومه لتتجاوز الضعف والخطأ وتبني رؤية جديد لمستقبل أفضل. فإذا كانت المقاومة سببا للنصر و نتيجة لمعادلة الصراع، فالنشاز هو ثقافة الاستسلام في زمن التحدي. هناك من يسعى لسرقة المستقبل منا بافتعال موقف الاعتدال. إن ثقافة الاعتدال ثقافة تعكس إرث الهزيمة وتحمي مكتسباتها. وهي ليست

مواكبة لتطور الأوضاع الإقليمية والدولية. بتعبير آخر هي ثقافة رجعية. ستحاول إسرائيل جهدها من الآن فصاعدا إن لا تحارب لوحدها، فسوف تستند إلى دروع من سياسات الاعتدال، ومحاولة خرق الصف العربي ما أمكن. وسوف تستغل إكراهات النظم العربية لمزيد من كسر إرادتها. إن إسرائيل اليوم ليست مثل الأمس. ولكنها قد تعود كما كانت بالأمس إذا نجح الاعتدال أن يعيدوا الموقف العربي الى مربع الهزيمة. فلأول مرة تخسر إسرائيل العالم فيما تربح قسما من العرب تموقعوا موضوعيا مع المصالح الإسرائيلية. هؤلاء يتجهون عكس التيار العالمي الذي بدا يخفف من مساندته المطلقة لإسرائيل. على المقاومة أن تثبت بالحقائق الميدانية خطأ موقف الاعتدال. فيما تظل الحاجة لغويا وفلسفيا وسيميائيا إلى اختراق هذه المفردات الجديدة. فالاعتدال ليس هو الرد الطبيعي في زمن الاحتلال والظلم والإبادة الجماعية، بل المقاومة هي رد الفعل الطبيعي الذي تقتضيه روح المقاومة.

وحينئذ ليس من المطلوب أن تتماهى النظم العربية في الحد الأدنى من المواقف التي تسمح بها الإكراهات والشروط الدولية، بل إن نوعا من المناورة والتكامل الذي يقوّي الموقف التفاوضي للنظم العربية لتحقيق مكتسباتها في حلّ النزاع العربي ـ الإسرائيلي، وكذا في مجالات التنمية والتقدم.

أخلاق الشاهد

شهودية المقاومة تتطلب قدرا من التخلق يفوق العادة. فلا يمكن تصور موقف شهودي من دون موقف أخلاقي يشكل ضامنه الأساسي. وقد كان حظ المقاومة في قوتها وصمودها بقدر تخلق أبنائها. الصدق في الموقف والثبات على المبدأ وعدم ممارسة السياسوية على حساب الحقوق. إن الملف المطلبي للمقاومة لا يتغير بفعل المحفزات التي تشكل رشاوى للتنازل على الحق التاريخي للشعوب. ولقد حدث مثل هذا بالنسبة للسلطة الفلسطينية منذ أوسلو حتى اليوم أن مطالبها تقلصت بصورة تكاد تشبه فراغ الخزينة العامة بفعل النهب اللامشروع للمال العام. فما على الأرض سوى تمدد الأطماع الإسرائيلية وفظاعاتها. فأين صرفت السلطة تلك البنود وما هي التعويضات وماذا كسبت السلطة عبر مفاوضاتها الضعيفة بل هل مكن تفاوض بين محتل ومجموعة تقع تحت رحمته أم إن المفاوضة تتم بين قوتين على طرفي نقيض؟! فالرهان على الوسطاء الذي علمونا كيف يصمتون إبان العدوان الإسرائيلي ولا ينطقون إلا بعد أن تكمل إسرائيل مشروع فتكها بالفلسطينيين ليحموا ظهرها وينقذوا ماء وجهها بعد كل هزيمة، لن يقدموا للقضية الفلسطينية شيئا.

إشكالية الشهود و زمانية الشهود

كان من المفترض أن يجري الحديث عن الشهود في صورة من صور التعالي التي يندك معها الزمان ويتحايث مع الفاعل. فالشهود لحظة فوق زمانية بامتياز. من هنا فشهادة الماضي على الحاضر ممكنة إمكان شهادة الحاضر على الماضي. فثمة شيء لا يمكن أن يوجد في تمامه إلا في الماضي. وثمة بالمقابل شيء لا يوجد بتمامه إلا في الزمان اللاحق. فالشهادة هنا أو هناك بقيودها وليست شهادات عارية مطلقة. من هنا فالزمانية هنا عارضة ليست جوهرا فيما نحن بصدده. إن الشاهد فوق زماني. وحينما كان الأنبياء شاهدون على من بعدهم فليس لأن شهودهم مقيدا بالماضوية، بل لأن شهودهم فوق زماني لا ينحصر في زمان دون آخر حتى لو عالجوا الحقيقة بقيد زمانهم فتجلت للاحقين كما لو كانت الماضوية قيدا من قيودها أو شرطا من شروطها. الشهود متعالي على الزمان، مثلما أن الشاهد كائن متعالي. وما يبدو صناعة للتاريخ، هو هذا الاختطاط الذي تنهض به مواقف الشهود الفوق زمانية ويقوده الشاهدون المتعالون على قيد الزمان وشروطه السلبية. وهنا يبدو الشهيد مثالا لهذا العبور من قيد الزمانية واشتراطات الماضوية إلى متعالي الانجاز الحر والشهادة الحية المنطلقة على

العصر. فالشهداء حينما يكونون شهداء متكاملي معناها وفلسفتها فقها وأخلاقا وعرفانا، فهم معيار هذا الشهود العابر للعصور، المفيض برمزيته الكبرى على تاريخ النوع. فبمقدار فيض الشهود ورمزيته يتحقق التحول التاريخي بمراكمات يلعب فيها الرمزي أكثر مما يلعب فيها المادي. وهذا طبيعي حسب بيير بورديو في استبدال المجتمعات الرأسمال الرمزي بالرأسمال المادي حينما تفتقر إلى هذا الأخير. الثابث في المعادلة هو كثافة رمزية الشهود. وتتكرس هذه الرمزية بالشهادة بوصفها دينامية من ديناميات الممارسة الشهودية. إن الشهادة هي التعويض الرمزي على قهر القوة المادية. والشهادة تمنح كيمياء الانتصار وتحول الضعف إلى قوة. وذلك بتحقيق الرادع الموضوعي لتدفق القوة المادية بتدفق القوة الرمزية. ومع منطق الشهادة تتغير قواعد الاستقواء ويتغير منطق التاريخ، لأن الشهادة تخضع التاريخ إلى المعنى الخصب للرمزي، وتحول دون اختزاله إلى تكييفات مادوية خالية من الرمزي. هذا سر ما تحولت إليه معظم الدراسات التي ناقضت الاختزال المادوي لفهم حركة التاريخ كما لفهم سر الهزيمة والانتصار.

وحتى لا نغرق في المديات الفلسفية لإشكالية الشهود، نقتصر على فهم مغزى التساؤل المشروع: أي الزمانات شاهد على الآخر؟

هل الماضي شاهد على الحاضر أم العكس هو الصحيح؟

كما ذكرنا، إن الشاهد هو فوق زمني. والزمانية هنا عارضة غير مؤثرة كزمانية. وهذا ما جعل فعل الشهادة ممكنا في حق الزمانات في شتى تخارجاتها: ثمة شاهد بقيد الماضي. وثمة شاهد

بقيد الحاضر وثمة شاهد بقيد المستقبل. وكلها شهادات تكتمل بها دورة الشهود. وهذا ما يمنح قيمة الزمانات جميعا حتى لا يظل زمان عالة على الآخر أو عاطلا عن الفاعلية محروما من نصيب الشهود ورمزيته. فلا بد للشاهد من تاريخ يرتكز عليه متى التفت إلى الوراء ومن مستقبل يتشوف إليه متى نظر إلى الأمام، ومن حاضر يؤمن بجدواه وفاعليته. وقد بات واضحا أن الأمة في كل صراعها مع القوى المهددة لكيانها الحضاري كانت تفتقد لهذه المرتكزات في مواجهتها. أي أنها كانت تناهض القوى الكبرى من دون قدرات متكافئة ولا تعويض من مخزون رأسمالها الرمزي. أي أنها لم تمارس الشهود أو على الأقل لم تمارسه كاملا. بل ربما ضخمت من الماضي حتى جعلته الشاهد الأوحد على حركتها، فسجنت مشاريعها ورموزها وفعاليتها في ماضي مخملي لا يؤمن معاشرة طيبة مع جوانبه الواقعية. وذلك لما صورت الماضي مشروعا مخمليا كله سعادات وكله انتصارات. وهكذا تقزم الحاضر وتراجع لصالح شهادة الماضي على الحاضر. وحينما يقيس الفاعل حاضره بالماضي المخملي يستصغر شأنه ويبكي حضه العاثر انه وجد في زمان استحال فيه بعث الصورة المخملية الماضوية التي ربما لم تكن بالمستوى من المثال الذي تحمله عقولنا. وقد بات واضحا أن الماضي يحضر بتعاليمه المكتملة التنزيل كما يحضر الحاضر بتشخصاته المكتملة التأويل. وهذا هو صلب مأزق الأمة وجوهر المشكل العربي والإسلامي في شتى شؤونه، أنه عجز ذات مرة من أن يخرج من زمن التنزيل الى زمن التأويل. إذا كان الماضي هو مخزون لتعاليم وآمال وانتظارات، فإن الحاضر هو أتون لصهر تلك الآمال وهو مجال لتحققات وتشخصات وإنجازات. . .الماضي

شاهد على الحاضر تعاليميا وانتظاراتيا، أما الحاضر فهو شاهد على الماضي تأويليا وانجازاتيا. وقد نتساءل ولو مرة واحدة: ما هي هذه التعاليم والانتظارات التي كان الماضي بها شاهد على الحاضر؟ وذلك لكي نبرهن على أن الماضي شاهد على الحاضر في أمور محددة فقط وليس في كل الأمور. وإن جزءا منه شاهدا على الحاضر وليس كله. وإن شهادته مجملة فيما شهادة الحاضر مفصلة. فشهادة الماضي على الحاضر تتم بالموجبة الكلية فيما شهادة الحاضر على الماضي تتم بالموجبة الجزئية. الأنبياء شاهدون على عصرنا كليا فيما الشهداء شاهدون على الماضي جزئيا. والشهداء استمرار لشهادة الأنبياء ما داموا ينجزون آمالهم ويحققون دعاءهم. إذن التعاليم والانتظارات الماضوية التي راكمتها آمال الإنسانية هي التشوق إلى العدالة والإنصاف والمساواة والكرامة، أي كل ما أصبح أرضية للتّأنيس. وهذه المطالب سيقت في طريقها تعاليم كبرى بصيغة افعل ولا تفعل. وهي مطالب ما فتئت تتفرع وتتعقد وتتطور داخل هذا العموم الذي يؤبد انتظاريتها. وهذا حد شهادة الماضي على الحاضر وليس في تفاصيل وهياكل وأطر مشخصة وعارضة في الماضي. فالماضي يرهص والحاضر ينجز. الماضي ينتظر والحاضر يحقق. الماضي يجمل والحاضر ينسق.

الفصل الثاني:

العرفان المقاوم وروح المقاومة

إذا كانت حدود التفهيم المعرفي تقبل بأن تكون اللغة هي مأوى الوجود حيث ليس أمامنا سواها لفهم ظاهرته، فإن حدود الفهم العرفاني يأبى أن تكون اللغة هي مأوى الوجود، لأن الوجود في الأولى هو محض تجلياته الظاهرة لكن حقيقته تأبى أن تحملها لغتنا الظاهرة.

إننا لا نتحدث في العرفان المقاوم عن أوهام بل عن حقائق يقينية. هي حينما نريد أن نراها تبدو لنا كالشمس في رائعة النهار. فآثارها واقعية مادية متجلية. والمقاوم الحقيقي هو عين العرفان. أي أننا لا نبحث عن حدود المطابقة بين حقيقته والواقع، بل هو لا يحتاج إلى معيار منطقي لذلك، لأنه هو نفسه في حدود انجازاته الباهرة يغدو معيارا تقاس به حقائق الصراع. فهو الواقع نفسه وهو المعيار. ومن خلاله تدرك حقائق الواقع الأخرى. من هنا كان لابد أن يكون المقاوم الحقيقي شاهدا على كل العصور، لأنه مرتبط بحق اليقين وبالوجود المتمنع عن مأوى اللغة ومعيار العلم الظاهر وحدود البصر القاصر عن بلوغ أبعاد البصيرة. فهو إذ ينِدّ عن الانحصار في لغة الوجود الظاهر، حتما يتفوق على زمنيته المحصورة لصالح المطلق. فالمقاومة تتصل بالمثل الأعلى قيميا وقدسيا ودينيا ووجوديا ولغويا. من هنا كانت لغتها غير اللغة.. ومعاييرها غير المعايير.. وانجازاتها غير الانجازات.. ويقينها غير اليقين.. فالمقاوم العارف حتى وإن لم يكن طاعنا في دربة العرفان النظري، يلود بالصمت، لأن اللغة قاصرة عن نقل شعوره.

يقاتل المقاوم بروحه لا بسلاحه. ولو أنه وضع كل رهانه على السلاح لخسر المعركة. فالسلاح حينما يكون في قبضة غير الرجال وفي أيدي منزوعة الروح، لن يمنع عنك الهزيمة. قليل من السلاح مع كثير من الروح تصنع معجزة النصر. فلتشغل المقاومة نفسها بتكثيف الروح وحماية الثقة في النفس وربط الوشائج بينبوع القوة، دون أن تغفل شريعة الإعداد المادي ما استطاع الخيال، تكون قد أعدت سنة النصر التي هي أصدق مصاديق الإعداد. فقوة الإيمان جلية لكن لا تراها عيون الحس لأنها غير عاقلة. ومن من هذه الحواس العمياء تملك أن ترى جنود الرحمن وبأي عقل تملك تمزيق حجب الخيال. ولو أنها أدركت بعضا من ذلك كان لا بد أن ترى القوة في ما دون المتوقع وليس في تضخم الحس. فكم وجب على الفهم أن يستبطن المغزى العميق للحقيقة. وهذا ما تجود به البصائر متى جاوزت قشرة الظاهر ومزقت برؤية العين البصيرة حجب الخيال. فحينئذ لن ترى في العدم وجودا. وكما قال مولانا جلال الدين الرومي: «ومن تكون عيونهم منزلا للخيال والعدم، يرون المعدومات وجودا لا جدال»[1].

في عالم الكثرة يحتاج الأمر إلى حد معقول من التعايش رغم اختلاف الأحوال وتدابر المواقف والشؤون. فثمة مهزوم وثمة منتصر.. ثمة جبان وثمة شجاع.. والهويات متخالفة متنافرة لكنها في مهبط عالم الخلق تفرض حدّا من التعايش ضروري. ولن ننتظر ذلك اليوم الذي تصبح فيه الهوية المقاومة هي ثقافة العالم بأسره. ستظل

(1) مثنوي مولانا جلال الدين الرومي، الكتاب الثاني، ص 33، ترجمة إبراهيم الدسوقي شتا، المجلس الأعلى للثقافة، 1997م.

تلك ثقافة نخبة النخبة والأصفياء من كل جيل ومن كل دين. حيث قدر الطليعة أن تظل نخبة وصفوة من الخلق. فانظر، «حتى وإن امتزج العود والسكر عنده، فإنه يستطيع أن يفصل كل واحد منهما عن الآخر. لقد انكسرت الصناديق وسالت الأرواح واختلط الصالح والطالح كل منهما مع الآخر. وأرسل الله تعالى الأنبياء بالكتب حتى يوضع كل صنف من هذه الحبوب في طبقه... حتى أشرقت شمس الأنبياء وقالت: أيها الزائف ابتعد وأيها الخالص الصحيح تعال... وهؤلاء الزائفون أعداء النهار... ومن هنا فإن الحق جعل القيامة نهارا. فالنهار هو الذي يبدي جمال الأصفر والأخضر»[1].

في مقياس العرفان المقاوم تتغير المقاييس وتختلف الحسابات. إن الأقل يهزم الأكثر.. والضعيف ينتصر على القوي.. ليس لأنها قوة إلّا من حيث الصورة الخادعة والمؤثرة على الخيال.. أما الضعف حينما يتحول بخيمياء العرفان المقاوم إلى قوة تستند إلى سرها الخاص، فإنها تقلب الموازين وتصنع المعجزات: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البَقَرَة: 249].

أي إن الهزيمة للأكثري هنا ليست جزافا، بل هي بعين الله، متى جعل المقاوم نفسه في محل القرب حتى غدا يرمي بيد الله: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: 17].

إن التعالي باتجاه المطلق يجعل المقاوم العارف يستمد منطق قوته من الحق ويمارسها في الخلق بالحق. فمولانا جلال الدين الرومي يحدثنا بشوق إلى هذه الحقيقة حينما يقول:

---

(1) المصدر السابق، ص48.

«وإن كنت قد فقدت المخالب وأنت لي، فإنني أقتلع لواء الشمس. .

وإن كنت قد ذهب عني الجناح، وتلطفت علي، فإن الفلك نفسه ينقل عني في ممارسته لفنون الصقور.

وإن تهبني شرف خدمتك، أحطم الجبل، وإن وهبتني قلم «السلطة» أحطم الأعلام.

وإن جسدي في النهاية ليس أضعف من جسد البعوضة، فإنني بجناحي أزيل ملكا «كملك» النمرود.

فاعتبر أنني في ضعفي كطير الأبابيل، واعتبر أن كل خصم بمثابة الفيل

فإنني ألقي حصاة بحجم البندقة، بندقة محرقة، والبندق في فعلي كمائة منجنيق.

وحصاتي وإن كانت كحبة الحمص، لا تبقي منها في الهيجاء رأس ولا خوذة.

لقد أتى موسى إلى الوغى بعصا واحدة، وهاجم بها فرعون ذاك وسيوفه»[1].

حينما تستسهل أمر الروح تنهزم مهما كان في حوزتك من سلاح. في نهاية المطاف الروح هو من يحدد نصر الأمة أو هزيمتها. والأمة تنتصر بطلائعها النوعيين حتى لو كانت كثرتها تثقلها عن بلوغ أهدافها لما تصبح كثرة فارغة المحتوى. ذلك مفاد حديث القصعة، حينما تساءل القوم عن سر هزيمة الأمة يوم تتداعى عليها الأمم كما

---

(1) المصدر السابق، ص53.

تداعى الأكلة إلى قصعتها: هل من قلة نحن يا رسول الله؟ قال بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل. فقد حق على هذه الأمة أن يكون قليل منها الشكور. وأجمل انتصاراتها جاءت من القلة النوعية التي هزمت الكثرة الشخصية، من بدر حتى كربلاء.

وجدير بنا أن نستدعي مثلا لمولانا جلال الدين الرومي في حكاية أحد الفرسان الذين كانوا يحملون أسلحتهم ويتحلون بالمهابة ويمتطون فرسا أصيلا وهو يتجول في الغابة. وحينما رمقه رامي بالقوس ذو مهارة شد القوس لكي يرميه خوفا منه. صاح به الفارس: إنني ضعيف وإن كنت أبدو صاحب بسطة في الجسم. فحذاري أن تنظر إلى ضخامتي فإنني أقل عند الحروب من امرأة عجوز. قال له: امض فقد أحسنت القول، وإلا أصميتك بسهم خوفا على نفسي.

وكثير من الأشخاص قتلتهم آلة الحرب، والسيوف في قبضاتهم لانعدام رجولتهم.

وإن لبست أنت سلاح أمثال رستم، فقد ضاعت روحك، عندما لا تكون روح رجل.

فاجعل الروح درعا، ودعك من السيف يا بني، وكل من يكون بلا رأس، يأخذ رأسا من هذا المليك»[1].

لا يناقض العرفان أهمية المعرفة في تحقيق النصر المعجز. هنا أنت أمام سرّ الروح وهي حسب جلال الدين الرومي أكثر خفاء من العقل. ففي مثنوي فإنه بالمعرفة تستطيع حركة ما جعل النحاس

---

(1) المصدر السابق، ص266.

ذهبا. فالمعرفة هنا كما لو كانت خيمياء يستطيع تحويل الهزيمة إلى نصر. هذه الروح الخفية هي سر انتصار المقاوم وبها يتماهى مع أسرارها. فهي أخفى من العقل لأنها حسب صاحب مثنوي غيبية. ومن هنا حينما تصبح المقاومة محمدية، يكون لها سرّ خاص. نعم ـ حسب جلال الدين الرومي ـ «أن عقل أحمد لم يعد خافيا على أحد، غير أن روح وحيه لم تصبح مدركة لكل روح»[1].

ولكي نفهم أكثر آثار هذا السرّ الروحي لما خفي من أمر روح الوحي المحمدي، وجب المضي مع هذا التوضيح الرومي في كامل السياق. إن خفاء الروح وظهور العقل يترتب عليهما نوع من التناسب في حراكهما المختلف. ومن هنا عبثا نحاول محاكمة حركات الروح الخفية بسلطان العقل الذي لا يكاد يفهم من حركة الروح شيئا. العقل أمام حركة الروح يصبح متحيرا. فهو يصل حد اتهامها بالجنون نظرا لندرة الحركة الروحية. والرومي يضرب لذلك مثالا من قصة موسى والخضر. كان موسى قاصرا عن رؤية تصرفات الخضر. «كانت تبدو غير معقولة أمام موسى لأنه لم يكن له حاله». وإذن هذا حال نبي مع رجل صالح، فكيف لو تنزلت الصورة. «وعقل موسى عندما يصبح مقيدا في الغيب، فما بالك بعقل فأر أيها المبجل». وينبغي أن لا ننظر إلى مثال الفأر عند مولانا جلال الدين الرومي كما لو كان تمثيلا اعتباطيا. فهو في مقام آخر يوضح تمثيله بالفأر، إشارة إلى المرتبة: «ولقد سميته فأر، ذلك أن موضعه في التراب، والتراب يكون للفأر مكانا للمعاش»[2].

(1) المصدر السابق، ص273.
(2) المصدر السابق، ص274.

العرفان المقاوم

لم يعد خافيا اليوم أن المعرفة سلطة. وهذه الأخيرة تساوق المعرفة في قوتها وضعفها ومستويات تقدمها وتأخرها. ومن هنا علاقة التاريخ بالمعرفة، حيث بات واضحا أن من يغلب معرفيا يكتب تاريخه كما أن من يغلب تاريخيا يفهرس معرفته. مع بداية كل تاريخ توجد معرفة. ومع كل معرفة هناك تاريخ جديد. مثل هذا عالجناه فيما سبق. فمن المعرفة في حدودها الدنيا إلى العرفان في مدياته العليا هناك مسافة عقلية وذوقية. يتجلى ذلك في مجمل نظراتنا للتاريخ والأرض والإنسان والمعرفة نفسها. فالمعرفة هي منتج طبيعي للعقل الأداتي بكل أبعاده وآثاره. بينما العرفان هو منتج طبيعي للعقل المحلق في سماء الحكمة بكل آفاقها وأسرارها. فهل للمقاومة حظ من العرفان بعد أن بات واضحا حظها الكامل من المعرفة؟

إننا سنكون مضطرين لأن نستند إلى جهاز مفاهيمي مغاير لما كان سندا لنا في السابق. هنا يكون جنود العرفان غير جنود المعرفة. وهنا يكون التحليق في الملك غير التحليق في الملكوت ـ «يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون» ـ وحيث كانت اللغة هنا مطية للمعرفة من شأنها أن تصبح هناك حجابا لها.

ومع أن لغة العرفان نفسها تضعنا أمام مرتبة من مراتب الحجاب، إلا أنها تظل أقرب من غيرها للإفهام والتفهيم. وهي نفسها الفارق بين الحجب الظلمانية والحجب النورانية. إن الطريقة التي قاوم بها المقاومون عدوهم، والقوة الروحية التي تحلّا بها هؤلاء المجاهدون تركت انطباعات مذهلة في عقول الأباعد قبل الأقارب. وحيث عجز الكثير من المراقبين عن بلوغ المغزى العميق لذلك السر العظيم بات ضروريا أن نغير اللغة والآفاق والذوق لنقف عند أبعاد امتنع على المعرفة الدنيا والعقل الأداتي بلوغها. والعرفان هنا حينما يتحقق بمعيتي النظر والعمل يكون منتهى العبادة. إذ لا عبادة إلا بالعقل. والعقل هو المتعبد الحقيقي وليست الجوارح إلّا آلته. وبهما تتحقق العبودية لله تعالى حيث جعلها منتهى غاية الخلق: «ما خلقت الجن والإنس إلّا ليعبدون».

ومن هنا إذا ما تبين أن المقاومة هي في طبيعة وجودها وحيثيات تعلقها بالسنن والقوانين، تكون مثالا لموقف عرفاني حقيقي من حيث إن المقاومة تصبح الطريق الأوحد الشاهد على التاريخ، ووحده المقاوم يملك أن ينتصر للقيم بمنتهى نكران الذات، في عالم لم يحض إلا في القليل - وقليل ما هم - بمن ينتصر للقيم ضد الضحالة.. والعدل ضد الظلم. إن المقاوم يحسن إحداث المصالحة بين المعرفة والعرفان. فإذا تزاحما في عوارض ما يبدو لعالم الخلق، رجح طريق العرفان ليطوي بها مسالك السفر نحو النصر.

في السفر من الهزيمة إلى النصر

إنه حقا لسفر في مسارات التاريخ ومنعطفات الذّاكرة. كيف نسافر من ثقل الإحباط وتداعيات الهزيمة وعقلها المتلبس بهواجسها إلى مراقي التجرد من كل شروط الهزيمة لاستئناف العمل بالوثوق بما في يدي الله. روح المقاومة ملكة لا تحصل إلا عند من سار في مسالك العرفان يعيش لقيم العدالة والحرية وهما من قيم الخير، أي من قيم الوجود. وحينئذ لا بد من أن ندرك أن المقاوم الذي تملكته روح المقاومة حتى بات لغزا لا تنهدم أسوار معانيه وأسراره المنيعة بوسائل التعرف القريبة، هو صنيعة رحلة روحية لها قواعدها ومقاماتها. ولو شئنا القول فإن المقاومة هي طريق العرفان نفسه على مسلك الأسفار العقلية والروحية الأربعة. إن المقاوم قبل أن تتملكه روح المقاومة بوعي عقلي واستعداد روحي تامّين يكون قد قطع هذه الرحلة وتركت فيه من تصاميمها ما يظهر جليا في آثاره ومسالكه. إنهم في البدء كانوا من جنس من غرقوا في عالم الهزيمة وثقافتها في وجودنا المحبط. وحيث هم من هذه النشأة المهزومة منذ النكسة ومرورا بكل الهزائم وتناقضات المشهد، كان لا بد أن يتشربوا من هذه الروح الخائرة الضعيفة والمتبلدة ما يقتضي منهم اجتهادا في الفهم و مجاهدة للنّفس

وجهادا في الميدان. وحيث حدث أن وفقوا لهذا السفر الروحي وطريق كمالات النفس، خرجوا من عالم الهزيمة وثقافتها المؤطرة بمعرفة الخلق إلى عالم النصر وثقافته المؤطر بعرفان الخالق. وهناك يبدأ التعلق بالمطلق الذي تنفضح معه أوهام الخلق. ويبلغ السفر مداه من النصر إلى النصر بالحق عبر تمثل صفات الأسماء والأفعال التي تنقشع معها بواعث الهزيمة وحجبها التي تحول دون رؤية معالم النصر بوصفها من أعراض ضعف الخلق. حتى إذا بلغ السفرين ـ في عالم النصر الإلهي على الذّات الخائرة في منتهى قوس الصعود ـ مبلغه بدأ العود إلى عالم الهزيمة بعقل منتصر. وحيث إن فيوضات النصر الإلهي لا حدود لها ـ حيث «لا يعلم جنود ربك إلا هو» ـ فإنه لا بد في رسوهم فوق عالم المهزومين أن يتمثلوا لغة تفهيم عالمهم المهزوم. وهنا يصبح الحديث عن المقاومة بتكتيكها واستراتيجيتها من وسائل النهوض بحقيقة النصر في عالم غلبت عليه لغة الهزيمة ووسائلها. ذلك لأن المقاوم في تجليه في عالم الهزيمة لا يشعر بأنه يقامر من أجل نصر لم يقع، بل هو يشعر بأنه منتصر سلفا، ولكنه منتصر بالقوة كشرط وجوده في عالم المهزومين، يبحث عن انتصار بالفعل وفق الاستراتيجيا والتكتيك المتاحين في عالم الخلق. وهو أصلا لم يحط في عالم المهزومين إلا بعد أن انتصر. إن النصر الإلهي حتمية تساوق مفهوم الوعد الإلهيٰ ـ «إن تنصروا الله ينصركم» ـ وهنا لا بد من أن نقرر بأن المقاوم انتصر منذ نصر الله في عالم النصر الإلهي لمجرد تحقق السفر من الخلق إلى الحق. السفر الذي يتحقق بالمجاهدة النفسية والجهاد الميداني. فتتحول الحرب عند المقاوم العارف إلى محراب، فيزداد التعلق والشوق ولذّة العرفان: فالطرق إلى الله بعدد

أنفاس الخلائق. وأضيف، بعدد مسالك الجهد: اجتهادا وجهادا ومجاهدة. وفي وضعية المقاوم تجتمع فروع الجهد كلها. فيكون المقاوم مصداقا للمجتهد المجاهد الجهادي. وقد يكون أحيانا الفارق كبير بين خبرة المقاوم الروحية وخبرته التبليغية. وذلك معناه أن خبرة المقاوم الروحية تجد نفسها أحيانا كتلة من الأسرار متقدمة لا يملك تفهيمها حيث تحصلت لديه بالعمل والممارسة والحدس اللطيف الذي يطوي أمامه رهق النظر وسعة مسالك البرهان. ومن هنا قد تبدو منجزات المقاومة أكبر بكثير من تجلياتها الفكرية لقصور الفكر عن بلوغ منتهى أسرارها. فكيف يملك أهل الكلام والفكر أن ينقلوا ذلك، ويظهروا من تلك الأسرار ما يضيف إلى المعرفة معرفة وإلى العرفان عرفانا.

المقاومة بين زمانين

إذا كنا سابقا استعملنا مفهوم الزمان المكثف مقابل مفهوم الزمان الفارغ. فالأمر هنا مختلف تماما. سوف نغير الاصطلاح لنتحدث عن مفهومين عرفانيين للزمان والتاريخ: الزمان المكثف مقابل الزمان اللطيف. العرفاني ينظر إلى التاريخ بوصفه مجالا للحراك والتغيرات الأفقية بوصفه الزمان المكثف. بينما يحتفظ بنظرة إلى زمان آخر غير معني بالتحولات الظاهرية، بل لا يلتفت إلى التحولات الأفقية مهما بدت مهمة، لأنه يؤمن بالتطور العمودي الذي يتجلّى في الزّمن اللطيف.

يتضح من ذلك أن المقاوم الحقيقي مرتبط بالزمان اللطيف أكثر مما هو معني بالزمان الكثيف. وحيث إن الخلق طرا يجيدون الانخراط في حركة الزمان الكثيف، فإن المقاومون وحدهم يملكون الانخراط في حركة الزمان اللطيف. وحيث باتت عيون المراقبين لحركة التاريخ الكثيف منصبة على مدياته الأفقية، ذهلت وغفلت عن إيقاع حركة الزمان اللطيف في مدياته العمودية. لذا ظهر لهم أن تاريخ المقاومة لا يتقدم لأن عينهم على الأفق المسطوح، لا على الأفق المتعالي. كما رأوا فيها مغامرة لأن عينهم على شروط وسنن الهزيمة، لا على فيض الكرامة وسكرة النصر. كما رأوا فيها نشدان

الموت والانتحار لأن عينهم ظلت على سنن الحياة بلا شرط الكرامة. إنهما رؤيتان، يصبح التواصل بينهما أحيانا مقطوعا لجهة اختلاف المنظور والمقام واللغة.

حينما يعانق الحدث شرطا وجوديا مختلفا، يختلف الزمان نفسه معه بمعية العرضية. فحركة الزمان هنا هي من سنخية حركة الوجود نفسه. فمتى كان الوجود دانيا خسيسا كان الزمان كذلك في الرتبة. ومتى كان الوجود عاليا شريفا تابعه الزمان في ذلك الشأن. وقد بات واضحا أن المتعالي هو دائما شاهد على المتداني. والأشرف حاكم على الأخس. وحينما يقال إن الماضي شاهد على الحاضر، فليس ذلك بلحاظ وحدة أو تشابه مراتب الوجود وآنات الزمان، بل بتفاوت سنخيتهما. فيكون الوجود والزمان الأشرفان حاكمين وشاهدين على ما عداهما ولو في المآل وليس في الآن والأول. الشرف هنا والحاكمية رتبية وجودية لا كرونولوجية محض. لذا قيل يوما خير القرون قرني من هذه الحيثية. وإلا فمن حيثية أخرى يصبح اللاحق أشرف بلحاظ الكرونولوجيا، لأنه أكثف وأكثر تراكمية. وقد يكون اللاحق أشرف متى تجلت فيه آمال وانتظارات السابق. فالزمان الأشرف يعيد نفسه دوريا حتى وإن كان الزمان الكرونولوجي لا يعيد نفسه. لا يكون الشاهد شاهدا إلا إذا ارتقى في الوجود. وليس معنى ارتقائه ذاك إلّا ارتقاء من الزمان. التناسب هنا بين حركة مكثفة للزمان يقتضيها التحول الأفقي ـ يكون التكثيف فيه والمراكمة قيمة وشرطا في التطور ـ وبين حركة لطيفة يقتضيها التحول العمودي ـ تكون اللطافة فيه والبساطة قيمة وشرطا في التطور ـ فالعارف حينما يعرف ربه بمعرفة النفس أو يعرف نفسه

بمعرفة الرّب، هو وحده بالنّظر أو العمل أو بكليهما معا ينتهي إلى كون النفس في وحدتها هي كل القوى وبأن تبسيط الوجود تقرّب العارف من إدراك سرّ كمال البسيط من حيث بسيط الحقيقة هو كل الأشياء. إن خاصية زمانية الوجود كونها مهملة وليست بارزة. فلا يرى منها سوى الوجود بلا عوارض. يتضخم الزمان في مقام الوجود الضعيف ويتراجع بقوته. كلّما انحجب الجوهر وضعف برزت عوارضه واختزلت حقيقته في حقيقتها. ومن هنا فإن الشاهد مع شرف وجوده يتعالى بالوجود بقدر ما يتعالى على الزمان. فيكون وجوده وحده كافيا للشهادة على ما قبله وما بعده. وحدّ شهادته على الماضي أنه كاشف عن ضعفه ومشخّص لانتظاراته. وحدّ شهادته على الآتي أنه حجة عليه ومثاله ولو بالأولوية القطعية. إن المقاوم العارف هو شاهد على كل العصور. يحتج به على الأقدمين والمتأخرين. وجب أن لا نستهين بالنموذج المهيمن على زماننا المقاوم. فلا نعتبر أن الجوانب الروحية لا وزن لها في معادلة ما تحقق. إن جزءا من شهادة الحاضر على الماضي يتجه نحو طبيعة العرفان المقاوم. لقد حاربنا بالخيال ولم نحارب بالروح.. بأحلام اليقظة وليس بالوعي الكامل.. بشيء من المعرفة وليس بالعرفان.. برمزية الجغرافيا وليس بحقيقة المكان الروحي.. إننا قاتلنا خلال كل حروبنا الحديثة بالطريقة التي قاتل بها كل المقاتلين حتى أننا استلهمنا فهمهم وطريقتهم وآفاقهم في القتال. غير أننا لم نقاتل بطريقتنا الخاصة إلّا هذه المرّة. كل ما بدا من تدبير الإعداد التقني عوارض لا تحجب الروح الوثّاب للجوهر النقي للوجود المقاوم. فحاضرنا شاهد على ماضينا. ووجودنا الحاضر أشرف

من وجودنا السابق. لأننا حينما نريد أن نكون الأفضل وجودا. فإن التجلّي اللّامنتهي للوجود الأشرف لا يحد بزمان ومكان. فالإرادات الحرة الشريفة هي التي تصنع الواقع الحر والوجود الأشرف.

روح المقاومة وحكمتها المتعالية

فهمنا ما المقصود أن يكون المتعالى شاهدا على المتداني في مقامات المقاوم والمقاومة. فكيف لنا أن نفهم في المقام نفسه شهادة الحاضر على الماضي. أعتقد أننا نملك قلب القاعدة التي ترى أن الماضي شاهد على الحاضر من خلال مقولة لا يصلح آخر الأمة إلا بما صلح به أولها. وقد بدا أنت هذا المفهوم قد استهلك نفسه بصورة لم يعد من الممكن تصور مفاده خارج انزلاقات الأفكار الرجعية التي ترهن الحاضر للماضي بكل تجليّاته. والحق أننا بالعرفان نستطيع الحديث عن الحاضر بوصفه آخر التجلي. وحيث العارف ـ وحديثنا هنا مقيد به ـ يرى أكثر مما رآه في السابق. فلا تكرار في التجلي. وحيث العارف يرى التجلي كل يوم مثلما تسطع الشمس على الأرض كل يوم، فإنه يمنح الحاضر أكثر مما يمنح الماضي من أهمية في ترصد واستقبال التجلي.

أصالة الوجود المقاوم

ليس الأمر حكاية حول نزاع مشهود بين أصالة الوجود أو أصالة الماهية بالمعنى الشائع لهذا النقاش بين مدرستين نسخت إحداهما الأخرى. وإنما نعني ما هو أقرب إلى ذلك، من أن المقاومة ذاتية للوجود من كل الجهات. وحتى نبقي على مفهوم بساطة الوجود هنا نقول أن المقاومة هي الوجود. فحيث كان الوجود هو خير محض، فإن المقاومة بهذا المعنى الذي يرمي إلى بلوغ الخير المحض، تكون هي الوجود. إذا كان منطلق المقاوم في نشدان كرامتة أمته بوصفها تتحقق أو لا يتحقق معها الوجود ـ نكون أو لا نكون ـ فتصريف الموقف في مقام الحكمة المتعالية أن تكون المقاومة هي الوجود، لأن العرفان المقاوم لا يرى الوجود إلّا خيرا محضا ولا يقبل بغير ذلك الوجود. ولكن ماذا نعني بالمقاومة كوجود تسامحا في العبارة، حيث إننا لا نتحدث عن مقاومة إلا في مقابل نقيضها بينما لا نقيض للوجود على وجه الحقيقة إلا ما كان من شأن التقريب فنقول هو العدم. وحيث إن العدم مسلوب الوجود كيف يكون نقيضا للوجود. في مستوى التحليل وفي الذهن نستطيع تصور العدم ومنحه معنى الوجود، وهذا ليس مقصودنا. مقصودنا أن المقاومة إصرار على الوجود وتقدم في الوجود طلبا للخير في

منتهاه كانت مساوقة للوجود. هنا وجب القول أن المقاومة مقامات. وحسن القيام لا يتأتّى إلّا بشرف المقام.

وقد يكون من باب المعاقرة الغريبة أن نسافر بالوعي المقاوم سفراته الأربعة بالتمام والكمال. وهذا إن حصل فإنه يرقى بالوعي المقاوم إلى سدرة الحكمة المتعالية من حيث إنها هي حاصل التركيب المتحقق بنفي النفي: أي أننا صعدنا بفعل السلوك المقاوم من دنيا الهزيمة إلى سماء نفي الذات المتلبسة بالهزيمة ثم معاودة نفي النفي. فالهزيمة هي بمقام نفي الشعور بالانتصار إن تحقق أو الطموح للانتصار إن لم يتحقق. فنفي النفي هنا انتصار. وحينما يتحقق الانتصار بنفي النفي وتعود الروح المقاومة إلى دنيا المهزومين، تخلق لها لغتها التواصلية بقيد التنازل والاستئناس، لتخوض في الوعي المقاوم بشروطه القاهرة. تحقيق هذه السفرات العقلية والروحية لروح المقاومة يتحقق بالتحليق في ملكوت النصر خارج كل الحجب الظلمانية للهزيمة. وحينئذ تجد نفسها قد عانقت مفاهيم الحكمة المتعالية للنصر، وهي ما يعني أن روح المقاومة ليست طوباوية تحلق ولا ترسو على الأرض. بل بما أنها تؤمن بالكثرة في عين الوحدة، فهي تسعى مع تحقق نزولها إلى عالم الشروط الموضوعية الى تسييس أدائها المقاوم بالتكتيك والاستراتيجيا. وعلى الأقل هي تؤمن أنها في عالم مختلف الأهواء بين المهزومين والمنتصرين.. بين المعتدلين والممانعين.. بين العدو والصديق..بين الأقوياء والضعاف. والحال، كيف وأنىّ لها أن تسوس مقاومتها ضمن معادلة صعبة. إن النصر يراه المقاوم وحده كما يرى العارف الوحدة دون الكثرة. لكن في عالم المهزومين كيف نفهّم حقيقة النصر تماما كما أننا في عالم الكثرة كيف نفهّم حقيقة

الوحدة. إن روح المقاومة تؤمن بأن الوجود واحد من حيث حقيقته. وأن التكامل واجب في حق ممكناته. وأن إعاقته عن الحركة حصر لمدياته ومراتبه التي هي حظه من صور مراقي ماهياته. إن من يحاصر الوجود الجماعي للأمة ويفرض عليه الإقامة في رتبة من مراتبه الدنيا في النهضة والتقدم والتنمية، سواء ما تعلق منها بالزمان الكثيف أو ما تعلق منها بالزمان اللطيف، أي من يفرض عليه مستوى من التمظهر الهوياتي الرديء في عالم متغير، هو عدو موضوعي وجبت مقاومته في الزمان كله وفي المكان كله. إن للزمان فلسفة وللمقاومة روح، ومتى تلبس بهما وعي الأمة وإرادتها، صنعت النصر تلو النصر. ذلك لأن للنصر باب يفتح ألف باب. فمن دخل باب النصر الواسع لن يخرج منه ولن ينهزم حتى لو خسر معركة أو معارك. وحينما انهزمنا ذات مرة كنا قد طرقنا الباب الخطأ. فلنخرج من أبواب الهزيمة ليتسنى لنا دخول أبواب النصر. وقد أثبتنا أننا أمة صمدت مع كل أخطائها 60 عاما أمام التدمير الممنهج. إننا أمة نجحت على الأقل في أنها لم تستبيحها الهزيمة كلّا: إنها أمة لا زالت تحمل روح المقاومة.

المقاومة متعالية والإرهاب متداني

«كن في الله وبالله ومع الله».

بهذا أحاطت المقاومة نفسها بالمطلق[1]. فكونها أحاطت نفسها بالمطلق يعني أنها تعالت على الزمانية الأدنى لتعانق المقام الأعلى. أي التقدم الرتبي في شرف الوجود. يتم ذلك بمجرد إعلان الانتصار على الموت لأجل الحياة الأمثل. ليكون ذلك منتهى العرفان.الإرهابي والمنتحر لا ينتصر على الموت بل تنتصر الموت عليه. ولا ينتصر للحياة، لأن الحياة تطرده. العرفان المقاوم فاضح للإرهاب. كاشف عن هشاشته. يستند بعض أنصار القتل ضد المدنيين وثقافة الإرهاب على منطوق الآية الكريمة: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: 60].

والواقع أن هذه الآية تتحدث عن ضرورة الإعداد بوصفها مانعة من الحرب لا بوصفها فتكا بالآمنين. أي أن الإرهاب هنا له معنى إرهاب المقاتل في ساحة المعركة الحقيقية لقتل المحارب

(1) ريتشارد ديكون: المخابرات الاسرائيلية، تـ: محمود فلاحة، ص70، ط1 ـ 1987 دار طلاس، دمشق.

الحقيقي وليس بالمعنى التعيّني لكلمة إرهاب التي تعني في القواميس الحديثة معنى ترويع المدنيين. إن الإرهاب كما في الآية الكريمة هو ذو دلالة لغوية وعرفانية تتعالى على النزعة القشرية، تعني أن تعد للمعركة أحسن إعداد لمواجهة العدو. وحيث إن العدو إن رأى فيك استعدادا للقتال لن يخوض معك حرب، فهو يرتهب فلا يدخل الحرب رأسا. وليس أنه يدخل معك الحرب لترهب المدنيين الذين هم غير المقاتلين. فمقاصد الآية تناقض في الصميم مقاصد أولئك. حيث الدعوة للإعداد حسب الآية هي لمنع الحروب لا وقوعها. أي الإعداد وطبيعة السلاح والقدرات كفيلة بأن تمنع وقوع الحرب. وهكذا يكون الإرهاب بحسب الآية دعوة لمنع الحرب وفي الثانية دعوة للدخول في الحرب. الإرهاب في الآية إرهاب نفسي وفي الثانية فتك ودم وقتل. الإرهاب في الآية يفيد معنى الردع في الاصطلاح العسكري اليوم وليس معنى الإرهاب سيئ الذكر الذي خضع لكثير من التوظيف. إن مشكلة الإرهاب ووظائفه في السياسات والاستراتيجيات هي مشكلة مفهومه وتعريفه. وهذا أمر لم يؤخذ بجدية، لأنهم في وارد استدخال حركات التحرر الوطني في المفهوم نفسه حتى لو كان الأهالي هم أكبر ضحايا إرهاب الدولة.

ثم إن الآية تتحدث عن إرهاب عدو الله وعدوكم. وهذا معناه أن نحقق أن عدونا هو حقا عدو الله. العدو المشترك لنا ولله. والمدنيين ليسوا أعداء الله بهذا المعنى الذي يفيد من قاتل الله ورسوله. وهذا يعني أن المقاتل لا يكون على تلك الصفة حتى يخوض سفرا عرفانيا يجعل حقا عدوه هو نفسه عدو الله. إذ لا يتحقق ذلك حتى تكون أنت لله وفي الله ومع الله ويتحقق مع ذلك

أثر قرب النوافل أو قرب الفرائض: بحيث تكون طورا أنت يد الله التي يبطش بها وطورا يكون الله هو يدك التي تبطش بها. وهذا مقام من العلو لا يتمكن من بلوغه من اختزل غايته في حور عين متخيلة في ذهنه على مقاس الدنيا مع فائض في المقاييس: فائض كمي لا نوعي: شيء من الأرداف زائد وبعض من القد الممشوق متحقق، وبدل تحقق الشبع بالقليل يطلب الشبع بالكثير. بل مع رفع الشعور بالشبع. إنها دنيا موسعة فيها اللذات تعرض بالجملة وبأحجام مزيدة. تصور كاريكاتوري للدنيا. إذا كان هذا الذوق المتداني مستقبح عند عقلاء أهل الدنيا كيف يكون مستحبا لعقلاء أهل الآخرة. ولو قلت لهؤلاء إن لذة الآخرة لم ترها العين ولم تسمع بها الأذن ولا خطرت على قلب بشر وهي لذّة عقلية رائعة، لما أقدم هذا الصنف على ما أقدم عليه. فهل هو في وارد أن يترك الدنيا من أجل لذّة عقلية. تلك هي ضريبة التقريب ونتائج التسطيح. ومن هنا وجب أن لا يكون أهل الظاهر أئمة الأفكار. بل هم في مربض التقليد والإتباع والائتمار. إن الغاية هي من يميز بين الإرهابي والمقاوم.. وكذلك الوسيلة هي من يميز بينهما. المقاوم يقاتل من يقاتله بشجاعة. الإرهابي لا يقتل من يقاتله بل يحاربه بإرهاب المدنيين. والمقاوم يطلب مجد الأمة بينما الإرهابي يطلب الحور العين لنفسه بإهلاك العالم من حوله: يا له من قرصان! فلو قلت لهؤلاء المغرر بهم إن لذة الآخرة هي تسبيح وتقديس وعقل، لما زهد في دنيا لا يملك فيها من تلك المعاوضات الخيالية ما يسترخص به نفوس الأبرياء بأنانية شاهدة على أنه متلبس بدنياه تلبس الطفل بأشيائه. من هنا يكون العرفان فاضحا لهذا السلوك فضحا لا يحتاج إلى فلسفة أخرى. فاضحا لمن يقتل الصالحين لا

لتحرير الأوطان بل للفوز بفريق من النسوة يتصورهن تصورا دنيويا شبقيا. الأنانية حاضرة هنا. والأنانية لا محل لها في قلوب العارفين الحقيقيين. يموت المقاوم ليعيش العالم أجمل كرامة. ويموت الإرهابي ليموت العالم ويذل بعده شرّ ذلة.

إذن هو جمال المقاومة

هل لنا أن نتحدث عن جمال المقاومة فيما هي ظاهرا موضوع لتجلّي جلال الله، مادامت هي فعل غضبي ورباطة جأش وقوة شكيمة وحرب وتدبير وصمود وقتل وموت وفتك؟

يبدو للوهلة الأولى أننا أمام مظهر من مظاهر الجلال. غير أنه مظهر حاجب يخفي أكثر مما يظهر. إذا كانت الحرب تجلي للجلال، فإنها في مفهمة العرفان تبدو لعبة كما يبدو من مجاز تصوير فعل التكوير وطي السماء والأرض طي الكتب مما أضحك وصفه سيد الأنام.

إن مشاهد الساعة تبدو في تصويره تعالى بقدر ما تظهر من تجلي صفات الجلال بقدر ما تعكس صفات الجمال. إنه الجمال في كنف الجلال والجلال في كنف الجمال. فلا تبحث عن كليهما بعيدا عن الآخر. فمضمرات الجمال في الجلال تحتاج إلى عارف يستبصرها. والمقاوم وهو يخوض أهوال الحرب، يكتشف ما بها من جمال يظهر له بمقدار شوقه وعشقه ومقامه في المقاومة والمعرفة والعرفان. وحينما يقاوم المقاوم بعشق، يستمتع بما لا يرى فيه غيره سوى هول وشقاء. بينما أدرك المقاوم معالم الجمال في الجلال.

خاتمة

من المؤكد أن مقام المعرفة يحقق قدرا من المعرفة بالآخر: اعرف عدوك. لكن مقام العرفان يمكنك من معرفة الذات: اعرف نفسك. إن المعرفة لها حدودها لكن في العرفان لا حدود لمعرفة النفس. كما إذا كان للمتداني حدود فليس للمتعالي حدود. لذا فالمقاومة مطالبة بالاجتهاد قدر الوسع في مداها المعرفي كما هي مطالبة بالمجاهدة اللانهائية في سلوكها العرفاني. إذا هي فعلت ستكون شاهدة بعرفانها على الآخر وبتعاليها على الآخر من منطلق أن من لا حدود له حاكم على من يحد من كل الجهات. ومن منطلق أنّ العرفان حاكم على المعرفة.

لقد ظلت حركة الإصلاح العربي تتأرجح بين مصيرين: نشدان التّرقّي من جهة ونشدان التحرر من جهة ثانية. وحدث أن حصل إخفاق كبير في استكمال الترقي والتحرر معا. ذلك لأن الاستعمار نفسه كان عائقا موضوعيا للتقدم. وهذا الانهزام تم ضمن جدل لا يخفي مسؤولية الذات في كل انتكاساتها التاريخية. أعني الذّات الضعيفة القابلة للاستعمار بتعبير مالك بن نبي. بل دعنا هنا ننحت مفهوما أوضح وأجلى فنقول «الإغراء بالاستعمار». وهذا ما حدث دائما أن الضعيف يغري القوي باحتلاله. لقد كانت فكرة

إنشاء وطن لليهود تتردد في أروقة القادة الصهاينة بين جملة من الخيارات، ربما في وقت ما كان الراجح تشكيلها في أوغاندا. لكن كل ذلك تمّ التراجع عنه لأن المجال لم يكن يسمح. وقد سعى هرتزل إلى صيغة لإنشاء هذه المحمية الصهيونية تحت سلطة الباب العالي التركي وحماية الألمان. وفي نشدانه ذلك تقدم بكلام للسلطان عبد الحميد يحمل من الإغراء بتعاون اليهود مع الدولة العثمانية واقترح مساهمتهم لإنقاذ الباب العالي من أزمة الديون التي غرق فيها، ما يؤكد أن الغطرسة جاءت متأخرة لكيان أظهرنا له الكثير من ضعفنا وهزيمتنا، ما أغراه بفلسطين. إن الطريقة التي أدار بها العرب دواليب الصراع مع العدو الصهيوني لم تكن ناجعة، بقدر ما أغرت الصهاينة بأن يحوّلوا وعد بلفور إلى حقيقة.

كان من المفترض أن نتسامى أكثر لندرك أننا كعرب كلنا في الهمّ شرق: ممانعين ومعتدلين، في نظر الراعي الغربي والمخطط الإسرائيلي. فلا زالت إسرائيل تنظر إلى مصر كعدو استراتيجي رغم اتفاقية السلام المبرمة بين الطرفين. نحن وحدنا ننظر إلى أنفسنا على أساس هذا الفارق الذي منحناه قواما حقيقيا فيما اعتبره العدو تمييزا تكتيكيا. وقد أمكن المقاومة أن تفضح هذا المنظور الوظيفي للعدو الرامي إلى إيجاد مزيد من الشرخ بين المقاومة والنظام العربي، بتعميق الفصل التعسفي بين الموقفين. وثمة مسألة تربوية تتعلق بعدم تغيّر الصورة النمطية عن العرب وعن فلسطين، رغم كل هذا الشرخ الذي يبدو بين فرقائنا حقيقيا بينما هو توصيف تحريضي ذو أبعاد وظيفية محض. إن تاريخ النظرة النمطية عن العرب والمسلمين في أوربا هو تاريخ نشوء هذا الكيان. وهذا معناه أنه وجب القبول بهذه الصورة ما دام هناك بين جنبينا كيان لا يزال

يعتقد أنه مميز عرقيا وأن من حوله هم مجرد غوييم. لقد بات واضحا أن المقاومة ساهمت كوسيلة لتبديد هذه النظرة النمطية عن العرب والمسلمين. وقد اتضح أيضا أن بعد انتصارات المقاومة في لبنان وفلسطين، تراجعت الصورة النمطية وتزلزلت إلى حدّ ما. فلقد تعاطف العالم مع المقاومين وقدّروا بطولاتهم. كما تعاطف العالم مع ضحايا لبنان وفلسطين، ولأول مرّة يتم تجريم الطرف الإسرائيلي الذي بات أكثر من أي وقت مضى في نظر العالم كيانا معتديا ومجرما. لقد تمادى العدو في عدوانه حينما تراءى له منذ 1948م أن العرب لا يملكون قوة الردع الحقيقية. فقد يستطيع الكيان الصهيوني أن يغير على المدنيين وهو لا يتوقع ردّا رادعا. وقد تحقق هذا الردع بالمقاومة. هذه الأخير حصانة ضد اعتداءات العدو وغاراته المستدامة. ففي مثال لبنان وجب الحديث عن تاريخ التدخل الصهيوني في الجنوب منذ 1978م ومرورا بـ 1982م وانتهاء بتموز 2006م. كما في فلسطين وجب الحديث عن الأخطاء التي رافقت الموقف من إسرائيل منذ 1948م حتى حرب غزّة 2008 م. الثابت في هذا التاريخ الذي خضع للعنف من جانب واحد تقريبا، هو أنه تاريخ ـ باستثناء الحرب العربية التي لم تبلغ مداها في مواصلة انتصارات كانت وشيكة ـ مازوخي. أي على إسرائيل أن تضرب تحت الحزام وعلينا في المقابل أن نستوعب الضربة ولا نفكر في رد الفعل الطبيعي. إن العرب منذ 1948 م ومنذ انعقاد اللجنة السياسية في الجامعة العربية لتأسيس الجيش العربي، لم يكونوا في مستوى ما تقتضيه شروط المواجهة. وأحيانا باتوا في وضعية من يهمه إبراء الذّمة بأي ثمن. في تلك الأثناء كانت الحركة الصهيونية تقوي جبهتها وتدرب ميليشياتها في ظل

الانتداب البريطاني وتتحسب لليوم الذي سيعلن فيه هذا الأخير عن الانسحاب من فلسطين ليعلن في اليوم نفسه عن قيام إسرائيل. بينما لم يكن العرب يومها يسمحون بتسليح الفلسطينيين خوفا من إزعاج البريطانيين. وهذا الموقف لا يزال يتكرر إزاء القوى الداعمة لإسرائيل. يغضون الطرف عن وصول اللوجيستيك إلى إسرائيل فيما يحكمون الطوق حول تسلح المقاومة الفلسطينية. علينا أن ندرك أن النظم العربية تحت إكراهات شتّى ليس عندها عداء حقيقي للمقاومة الفلسطينية، لكن المسألة تتعلق بمراعات المزاج الاستراتيجي للقوى الراعية لإسرائيل. ومثل هذا الموقف لا مجال للخروج منه إلا بأن تحمل المقاومة مسؤوليتها لكسر طوق الإكراهات الكبرى على النظام العربي. يمكننا القول أن كل هذا الانفراج الذي أدى إلى تحولات في التكتيك والخطاب تجاه النظام العربي، إنما يعود الفضل فيه للمقاومة وليس لغيرها. إن الاعتدال صفة ممنوحة تحت طائلة الإكراه. وما قبل تحت الإكراه غصبا لا يعكس حقيقة الموقف. لقد قدمت المقاومة وصفة لعلاج المازوخية العربية تجاه الجلاد الصهيوني الذي لم يشبع من الدم الفلسطيني.

إن المقاومة إذن هي مصالحة بين الأمة وذاتها. وهي خروج من حاق القابلية للاستعمار. ومقاومة للإغراء به. إنها بالدرجة الأولى مقاومة لضعفنا وسذاجتنا وتأخرنا. وهذا شرط حتمي في عملية التقدم والإصلاح. فالأمة التي تغري الآخر باحتلالها لا يمكن أن تسلك طريق الترقي، بل لا يمكنها أن تلجه مطلقا! إن هوية الأمة تزداد اتساعا وتكاملا كلما أمكنها تكثيف حضورها بالرسوخ في الأرض بالمقاومة والرسوخ في الزمان عبر الانتصارات التاريخية. وهذا يتم بالمقاومة وليس بدونها.

الفهرس

مدخل عام 5

الفصل الأول

المعرفة المقاومة وامتلاك فلسفة التاريخ

في الحاجة إلى مقاومة معرفية 11
الدين تعاليم وليس نظيمة أيديولوجية 14
خاصية الإشراق ـ التنوير 19
خاصية الانتظار ـ أمل الشعوب 21
خاصية التعالي ـ الشعور بالنصر ورفض الهزيمة والاستسلام 23
في قيمة الزمان وأهميته المفهومية 24
التشارك في الكون الفيزيقي 29
التشارك في الكون الميتافيزيقي 32
تاريخانية المقاومة أم المقاومة كحدث بنيوي؟ 33
المقاومة حينما تصنع تاريخها 37
زمان المحتل و زمان المقاومة 41
حينما يحاكم الحاضر الماضي ويصبح نموذجاً للمستقبل 44
الانتصار خيار والهزيمة خيار: ذلك درس المقاومة 46

بدء المعرفة، إعرف عدوّك: في المسألة اليهودية 51
تاريخ مزيف وزمان فارغ 52
حفر المنحدر لبلوغ المرتفع 74
المقاومة من التكتيك إلى الاستراتيجيا 87
هل تستطيع إسرائيل أن تختار الموت فداء الدولة؟ 90
الحاضر شاهد على الماضي 93
بدعة الاعتدال والممانعة 94
أخلاق الشاهد 99
إشكالية الشهود و زمانية الشهود 100

الفصل الثاني:

العرفان المقاوم وروح المقاومة

العرفان المقاوم 114
في السفر من الهزيمة إلى النصر 116
المقاومة بين زمانين 119
روح المقاومة وحكمتها المتعالية 123
أصالة الوجود المقاوم 124
المقاومة متعالية والإرهاب متداني 127
إذن هو جمال المقاومة 131
خاتمة 132